@ketab_n
Follow Me
9.9.2015

ألبيرتو كونتي

بابلو نيرودا

ترجمة
صالح علماني

طوى
للثقافة والنشر والإعلام

ألبيرتو كونتي

بابلو نيرودا

ترجمة

صالح علماني

للثقافة والنشر والإعلام

Twitter: @ketab_n

ألبيرتو كونتي: بابلو نيرودا

Twitter: @ketab_n

Book: Pablo Neruda

الكتاب: بابلو نيرودا

Alberto Conti

ترجمة: صالح علماني

Translated By: Saleh Almani

First Edition: 2015

الطبعة الأولى ٢٠١٥

All rights reserved

حقوق الطبع محفوظة ©

للثقافة والنشر والإعلام

طوى للثقافة والنشر والإعلام ـ لندن

TUWA MEDIA & PUBLISHING LIMITED

19 TANFIELD AVENUE, LONDON, NW2, UNITED KINGDOM

Tel: 009662108111 - 00966505481425

Email: Tuwa.pub@gmail.com

التوزيع: منشورات الجمل

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ـ ٠١ ـ ٣٥٣٣٠٤

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

ISBN 978-9933-35-201-1

All rights reserved. Except for brief quotations in a review, this book or any part thereof, may not be reproduced, stored in or introduced into a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior written permission of the publisher.

Twitter: @ketab_n

مدخل

إن روبين داريو وبابلو نيرودا هما، دون شك، أكثر كاتبين تركا أثراً في الشعر الناطق بالإسبانية، في القرن العشرين. ولكن الشاعر التشيلي فاق زميله النيكاراغوي في ما يتعلق بانتشار أعماله. ويمكننا التأكيد أنه، منذ ثربانتس، لم يحرز شاعر ناطق بالإسبانية، شعبية تضاهي شعبية نيرودا. فترجماته تُعدّ بالمئات ـ بدءاً من اللغات الأوروبية كلها، وانتهاء بلغات لا يمكن تصورها، كالأوزبكية، والأوردية، والبنغالية، وغيرها ـ وطبعات كتبه تعد بالآلاف، وعدد النسخ التي تحمل اسمه على غلافها، في طول العالم وعرضه، تعد بعشرات الملايين. وقد تلقى في حياته، جميع الجوائز وكل التكريم الذي يصبو إليه كاتب؛ حتى وصل إلى جائزة نوبل ـ منحت له عام ١٩٧١، وكان مرشحاً لها قبل ذلك بعشرين سنة ـ وكانت حياته محطاً لجوائز أخرى لا حصر لها، ولدرجات دكتوراه فخرية، من عدة جامعات أمريكية وأوروبية، ولأوسمة وتشريفات أكاديمية، ودعوات كضيف رسمي على عدد من رؤساء الدول، وتكريم شعبي وصل إلى حد اندفاع الحشود إلى ملء ملاعب رياضية رحبة، من أجل شخصه وحسب.

Twitter: @ketab_n

إضافة إلى العوامل غير الشعرية التي ساهمت في شعبية نيرودا المذهلة، ليس ثمة شك ـ لأن بؤس أعدائه فقط، هو الذي يطرح للنقاش أمراً كهذا ـ في أنه لا بد من البحث عن السبب الأول والأخير لشعبيته، في طبيعة شعره حتماً. وتبقى مهمة هذا الكتاب ـ بعد مراجعة سريعة لشاعرية نيرودا ومآثره الشخصية ـ محاولة لتحليل تلك الطبيعة العميقة، والعناصر الأساسية التي حركها الشاعر للوصول إلى هذه الطبيعة، والوصول في الوقت نفسه، إلى هذا الجمهور العالمي الواسع المتحمس. ومن المناسب في هذا المقام، أن نعيد بعض الاعتبارات التي ذكرها السيد كارل هاغنار هيرو، سكرتير الأكاديمية السويدية، والتي أوافقه عليها، وهي تتخذ المنحى نفسه الذي تمضي إليه نتائجي حول «ظاهرة نيرودا»؛ إذ قال بمناسبة منح جائزة نوبل للشاعر، في استوكهولم:

> لقد خُصصت جائزة نوبل، هذا العام، لكاتب مُتنازَع فيه، لكاتب ليس مدروساً وحسب، وإنما هو ما يزال موضع دراسة ومناقشة. غير أن كون هذه المناقشة مستمرة، طوال الأربعين سنة الماضية، يؤكد أن مساهمته في ميدان الأدب، ليست موضع جدال.

وبعد أن يورد آراء غارسيا لوركا، وخوان رامون خيمينث، حول نيرودا، تلك الأحكام التي أصبحت كلاسيكية (إذ اعتبره

Twitter: @ketab_n

الأول: الشاعر الأقرب إلى الدم منه إلى الحبر. بينما وسمه خوان رامون خيمينث بأنه: أعظم شاعر سيئ)، يتابع هيرو:

السبب الذي جعل الإبداع الشعري النيرودي المبتكر، يلتصق بأسماعنا، هو أن شيطان شعره جبار متسلط، لدرجة أن المرء يتساءل إذا ما وُجدت ظاهرة كهذه في تاريخ الشعر. ففي الثالثة عشرة من عمره، نشر أولى قصائده. وفي العشرين، كان قد صار شاعراً معروفاً. وفي عام ١٩٦٢، أصبح نتاجه الشعري يربو على ألفي صفحة. وبعد سنتين من ذلك ـ عندما أكمل الستين من عمره ـ نشر خمسة مجلدات شعرية أخرى بعنوان «ذكريات إيسلا نيغرا». ثم رأت النورَ كتبٌ عديدة أخرى من تأليفه، منها أعمال رائعة مثل «أغنية البحارة».

أمام هذا الموج الشعري المتلاطم، لن يفي تقديم قصير بالغرض؛ فالحديث عن قصيدة واحدة، من هذا العالم الشعري غير المحدود، أو عن كتاب واحد، هو أمر مضحك، أو هو كمن يحاول أن يعيب سفينة تزن خمسين ألف طن، بوجود ملعقة، على غير ما يرام، فيها. والقول إن هذا النتاج الأدبي العملاق، يمتاز كله بالمستوى نفسه، هو قول غير

Twitter: @ketab_n

معقول، بكل بساطة. فمن يرغب في العثور على الجانب الضعيف في الشعر النيرودي، لن يحتاج إلى وقت طويل في البحث. أما من يريد العثور على الجانب القوي، فإنه لن يحتاج للبحث أبداً.

إذا ما أضفنا الكتب التي نشرها نيرودا قبيل موته، والمجموعات الشعرية الثماني التي نُشرت بعد موته، ومذكراته، ودفاتر النثر السبعة المتنوعة التي ظهرت، منذ مدة قريبة، تحت عنوان «للولادة وُلدتُ»، فإن الصفحات الألفين التي ذكرها هيرو، سيرتفع عددها إلى أكثر من خمسة آلاف، لتشكل جسداً بيبلوغرافياً يربو على الخمسين عنواناً.

ثمة أمر آخر، أكثر أهمية، لا بد من إضافته إلى هذه القدرة الخلاقة التي يعتبرها سكرتير جائزة نوبل، قوة متسلطة، ألا وهو تنوعه الذي يفوق ما يمكن تصوره؛ فالمسيرة النيرودية سُبقت بمغامرة شعرية، تبدلت مراراً وتكراراً، واتخذت مسارها في إستراتيجية لولبية.

إن الموضع المشترك الذي يقف عليه نقاد نيرودا، يستند إلى اتهام الشاعر بالرتابة، وتكرار موضوعه وأشكاله دون هوادة. وأعتقد بأن حججاً أخرى ـ كما سنرى في الخاتمة ـ تستطيع أن تقف في وجه تأليه شاعرية نيرودا، ولكنها ليست هذه الحجج، لأن نيرودا لم يسترح يوماً.

Twitter: @ketab_n

عرض تاريخي

١٩٠٤ ـ يوم ١٢ تموز (يوليو)، يولد في بلدة برال (تشيلي)، ريكاردو إليثار نيفتالي ريس باسوألتو. وهذا هو الاسم واللقب الحقيقي لمن سيصبح بابلو نيرودا.

أبواه هما: خوسيه دل كارمن ريس موراليس، العامل في سكة الحديد؛ وروسا باسو ألتو، المعلمة في مدرسة الأطفال الثانية في «برال».

تتوفى والدة الشاعر، بداء السل، في الشهر التالي لولادته، وقبل أن يحتفل العروسان ريسباسوألتو بالذكرى السنوية الأولى لزفافهما؛ ذلك أنهما تزوجا في شهر تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٠٣.

١٩٠٦ ـ ينتقل دون خوسيه دل كارمن إلى تيموكو، وهي في ذلك الحين، الطرف الجنوبي الأقصى للحضارة، ويتزوج هناك من ترينيداد كانديا مارفيردي.

وفي السنة التالية، يأتون بنيرودا ـ ولم يكن قد أكمل الثالثة من عمره ـ ليعيش مع العروسين الجديدين.

Twitter: @ketab_n

١٩١٠ ـ يدخل نيرودا مدرسة ليسيه الذكور في تيموكو، ويبقى إلى أن ينهي دراسته فيها، عام ١٩٢٠.

١٩١٧ ـ في الثامن عشر من تموز (يوليو)، وبعد أيام قليلة من إكماله ثلاث عشرة سنة من عمره، ينشر أول عمل له؛ وهو عبارة عن مقال بعنوان «**حماسة ومثابرة**»، في جريدة «**لامنيانا**» الصادرة في البلدة التي يعيش فيها.

١٩١٨ ـ في العدد رقم ٥٦٦ من مجلة «**كورّيبويلا**»، الصادرة في سنتياغو دي تشيلي، بتاريخ ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ينشر، لأول مرة، قصيدة من نتاجه، بعنوان «**عيناي**»، ويوقّعها باسم نيفتالي ريس.

وقبل أن ينتهي العام، تظهر له ثلاث قصائد أخرى في المجلة نفسها. وكذلك، بعض القصائد الأخرى، في مجلات الطلبة الأدبية، في تيموكو.

١٩١٩ ـ ينشر العديد من القصائد في مجلة «**كورّيبويلا**»، وفي مجلة «سيلفا أوسكورا» الصادرة في تيموكو، ثم في مجلات أخرى تصدر في مدينتي تشييان وبالديبيا، مستخدماً عدداً من الأسماء المستعارة.

ويشارك في مسابقة للشعر، في «**ماولا**»، وينال الجائزة الثالثة عن قصيدته «**ليليٌ مثالي**».

Twitter: @ketab_n

١٩٢٠ ـ في شهر تشرين الأول (أكتوبر) يتخذ بصورة نهائية، الاسم المستعار «بابلو نيرودا» لينشر به قصائده.

وفي الثامن والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) يحصل على الجائزة الأولى، في مهرجان الربيع في تيموكو.

يرأس الجمعية الأدبية في البلدة التي يعيش فيها، وينجز مجموعتين شعريتين هما: («**الجزر الغربية**» و«**أتعاب بلا جدوى**»)، ولكنه لا ينشرهما. ومع ذلك، فإنه يضم بعض قصائدهما إلى ديوان «**غسقيات**».

١٩٢١ ـ يسافر نيرودا إلى سنتياغو، حيث يبدأ الدراسة في المعهد التربوي، ليصبح أستاذاً للغة الفرنسية.

وفي الرابع عشر من تشرين الأول (أكتوبر) يفوز بالجائزة الأولى، في المسابقة الأدبية التي ينظمها اتحاد طلبة تشيلي. وذلك عن قصيدته «**أغنية العيد**» التي نشرتها، فور فوزها، مجلة «**خوبينتود**».

١٩٢٢ ـ يساهم في مجلة «**كلاريداد**»، ويشارك في المناظرات الشعرية التي تنظمها جماعة «**بريميا**» الأدبية.

ويرد اسمه في العدد الخاص الذي كرّسته مجلة «**لوس تيمبوس**» الصادرة في مونتيفيديو (الأورغواي) للشعر التشيلي الشبابي.

١٩٢٣ ـ يظهر الديوان الأول للشاعر «**غسقيات**»، في شهر آب

Twitter: @ketab_n

(أغسطس) عن دار النشر كلاريداد. ويشارك نيرودا في مجلة الدار، بغزارة، على امتداد السنة، موقعاً مقالاته بالاسم المستعار «**ساشكا**».

١٩٢٤ ـ تصدر في شهر حزيران (يونيو) الطبعة الأولى من ديوانه «**عشرون قصيدة حب وأغنية يائسة**». وهو أوسع أعمال نيرودا شهرة، على المستوى العالمي.

١٩٢٥ ـ يرأس تحرير مجلة «**كاباتو دي باستوس**»، ويساهم في عدة دوريات.

تصدر الطبعة الأولى من «**محاولة الإنسان اللانهائي**». ويكتب في الوقت نفسه «**المقيم وأمله**».

يسافر إلى انكود، ويزور تيموكو، حيث ما زالت أسرته تقيم. وفي سنتياغو يعيش متنقلاً في فنادق مختلفة، أو متقاسماً غرف السكن مع أصدقائه.

١٩٢٦ ـ تصدر الطبعة الأولى من «**خواتم**» و«**المقيم وأمله**». ثم يصدر النص النهائي من «**غسقيات**» في طبعة ثانية مهداة إلى خوان غاندولفو.

يقوم نيرودا بترجمة أشعار ريلكة، ويتابع نشر قصائده في المجلات الأدبية.

١٩٢٧ ـ يُعين قنصلاً فخرياً في رانغون (برمانيا). ويسافر إليها في الرابع عشر من شهر تموز (يوليو)، عن طريق بوينس آيرس.

Twitter: @ketab_n

ومن العاصمة الأرجنتينية، يستقل السفينة «**بادن**» متوجهاً إلى لشبونة. وبعد شهر من ذلك، يصل إلى مدريد. ومنها يتوجه إلى باريس، ثم مرسيليا، قبل أن يتابع رحلته إلى الشرق: إنها المرة الأولى التي يغادر فيها تشيلي.

يعمل مراسلاً لجريدة «**لاناثيون**» الصادرة في سنتياغو، التي تنشر تقاريره بانتظام.

يتعرف في برمانيا على خوسيه بليس، ويعيش معها.

١٩٢٨ ـ يُعين قنصلاً في كولومبو (عاصمة سيريلانكا. وكانت تُعرف آنذاك، باسم سيلان).

تلحق به خوسيه بليس إلى هناك. ولكن العلاقة بينهما، تأخذ بالاضطراب، ثم يفترقان نهائياً، بعد وقت قصير.

١٩٢٩ ـ يحضر مؤتمراً لأنصار الهندوس في كلكوتا.

١٩٣٠ ـ يُعين قنصلاً في باتافيا (جاوا).

ينشر ثلاثاً من قصائده، في مجلة «**ريفستا دي أوكثيدينتي**» المدريدية.

وفي السادس من شهر كانون الأول (ديسمبر) يتزوج من ماريا أنطونيتا هاغينار بوخيلثانت.

١٩٣١ ـ يُعين قنصلاً في سنغافورة.

Twitter: @ketab_n

١٩٣٢ ـ يرجع إلى تشيلي، بعد غياب دام خمس سنوات، تقريباً.

وفي شهر تموز (يوليو) تظهر الطبعة الثانية من «**عشرون قصيدة حب وأغنية يائسة**» في نصها النهائي.

١٩٣٣ ـ يُصدر ديوان «**رامي المقلاع المتحمس**». وكذلك طبعة جديدة، في الأرجنتين هذه المرة، من «**عشرون قصيدة حب وأغنية يائسة**».

ثم تصدر طبعة من كتاب «**إقامة في الأرض**» بإخراج فاخر، ونسخ محدودة، بلغ عددها مئة نسخة فقط. وقد ضمت هذه المجموعة قصائد كُتبت بين عامي ١٩٢٥ و١٩٣١.

وفي الثامن والعشرين من آب (أغسطس)، يسافر إلى بوينس آيرس، حيث عُيّن قنصلاً.

وفي شهر تشرين الأول (أكتوبر) يتعرّف في بيت بابلو روخاس باث، في بوينس آيرس، على فيدريكو غارسيا لوركا.

١٩٣٤ ـ يسافر في شهر أيار (مايو) إلى برشلونة، كقنصل لبلاده. وفي اليوم الرابع من تشرين الأول (أكتوبر) تولد في مدريد، مالفا مارينا، ابنته الوحيدة.

وفي شهر كانون الأول (ديسمبر) يقدمه غارسيا لوركا في جامعة مدريد. ويتعرف في هذه الفترة أيضاً، على ديليا دل كاريل، في بيت مورلا لينتش.

Twitter: @ketab_n

١٩٣٥ ـ في شهر شباط (فبراير) يجري نقله إلى القنصلية التشيلية في مدريد، حيث يمارس في هذه المدينة، حياة أدبية نشطة.

وفي شهر نيسان (ابريل) ينشر الشعراء الإسبان وثيقة بعنوان «**تحية إلى بابلو نيرودا**».

في شهر أيلول (سبتمبر)، تظهر الطبعة الواسعة من ديوان «**إقامة في الأرض**»، بعد الطبعة الفاخرة الأولى، محدودة عدد النسخ. ومنذ شهر تشرين الأول (أكتوبر) يصدر العدد الأول من مجلة «**الحصان الأخضر للشعر**»، التي أسسها ورأس تحريرها نيرودا نفسه، في مدريد.

١٩٣٦ ـ تنشب الحرب الأهلية الإسبانية، ويجري اغتيال فيدريكو غارسيا لوركا.

يتخذ نيرودا موقفاً حاسماً إلى جانب الجمهورية، ويبدأ بكتابة قصائد ديوانه «**إسبانيا في القلب**».

يقال من منصبه الدبلوماسي.

يسافر إلى بلنسية، ثم إلى باريس، حيث يصدر ويرأس تحرير مجلة «**شعراء العالم يدافعون عن الشعب الإسباني**» بمشاركة نانسي كونارد.

ينفصل عن زوجته ماريا أنطونيتا هاغينار.

Twitter: @ketab_n

١٩٣٧ ـ يؤسس، هو وثيسر باييخو، في باريس «**المجموعة الإسبانوأمريكية لمساعدة إسبانيا**».

وفي شهر تشرين الأول (أكتوبر) يعود إلى تشيلي، حيث ينشر «**إسبانيا في القلب**»، ويرأس «**تحالف المثقفين للدفاع عن الثقافة**».

١٩٣٨ ـ تتوالى طبعات «**إسبانيا في القلب**»، ويعاد طبع أعماله كلها تقريباً، في سنتياغو وبوينس آيرس.

وفي اليوم السابع من أيار (مايو)، يتوفى والده في تيموكو.

وفي الثامن عشر من آب (أغسطس)، تتوفى زوجة أبيه.

تصدر في باريس ترجمة «**إسبانيا في القلب**» إلى الفرنسية، مع مقدمة كتبها لويس أراغون. ثم تظهر بعد ذلك بقليل الطبعة الإسبانية التي نشرها مانويل ألتولاغييري في جبهة القتال.

يفوز مرشح الجبهة الشعبية، بيدرو اغييري ثيردا، في انتخابات الرئاسة التشيلية التي جرت في شهر تشرين الأول (أكتوبر).

يجول نيرودا، محاضراً، في طول بلاده وعرضها.

١٩٣٩ ـ تعينه حكومة الجبهة الشعبية في تشيلي، قنصلاً مفوضاً لشؤون الهجرة الإسبانية. ويكون مقره في باريس. وبعد شهور من الجهود المكثفة، يتمكن نيرودا من جمع عدد كبير من اللاجئين الإسبان، من مختلف أنحاء أوروبا، ويرسلهم إلى تشيلي.

يصدر له ديوان «**الغضبات والمشقات**»، ثم الترجمة الروسية لديوان «**إسبانيا في القلب**».

Twitter: @ketab_n

١٩٤٠ ـ يعود إلى وطنه في مطلع العام، ويتابع العمل في «**النشيد الشامل لتشيلي**»، الكتاب الذي سيتوسع، بعد عشر سنوات من العمل، ليشمل أميركا بأسرها، ويتحول إلى «**النشيد الشامل**».

في شهر آب (أغسطس) يسافر إلى المكسيك، حيث مقر قنصليته الجديد.

١٩٤١ ـ يقوم برحلة إلى غواتيمالا. وبعد عودته، يُمنح درجة دكتوراه فخرية من جامعة ميتسواكان.

في كانون الأول (ديسمبر)، خلال زيارته لمدينة «كويرنا باكا»، يتعرض لاعتداء من جانب جماعة نازية، وكرد على هذا الاعتداء، يتلقى رسائل تأييد من مئات المثقفين، في مختلف أرجاء أمريكا.

١٩٤٢ ـ يقوم برحلة إلى كوبا.

ينشر القصائد الأولى من «**النشيد الشامل**».

تتوفى ابنته الوحيدة مالفا مارينا في أوروبا.

١٩٤٣ ـ يتوالى صدور طبعات الأعمال النيرودية في مكسيكو، وليما، وبوغوتا، وسنتياغو.

توجه إليه دعوة من صوت الأمريكيتين لزيارة نيويورك.

في ٢٧ آب (أغسطس) ينهي مهمته الدبلوماسية في المكسيك. ويقام لوداعه، احتفال يحضره ألفا شخص.

يعود إلى تشيلي، في رحلة طويلة تتخللها عدة محطات: بنما،

Twitter: @ketab_n

كولومبيا، والبيرو، حيث استقبل بحفاوة بالغة. وزار في هذا البلد الأخير، أطلال مدينة ماتشو ـ بيتشو، وهي زيارة بالغة الأهمية، تمخضت عنها إحدى قمم «**النشيد الشامل**».

يصل إلى سنتياغو يوم الثالث من تشرين الثاني (نوفمبر). ويلقي عدداً من المحاضرات.

١٩٤٤ ـ ينال الجائزة البلدية للشعر.

وتصدر طبعات جديدة من أعماله في نيويورك وبوينس آيرس.

١٩٤٥ ـ في ٤ آذار (مارس)، يجري انتخابه عضواً في مجلس الشيوخ التشيلي، عن منطقتي تاراباكا وأنتوفاغاستا.

يُمنح الجائزة الوطنية للآداب، في وطنه.

وفي الثامن من تموز (يوليو) ينضم إلى صفوف الحزب الشيوعي التشيلي.

يزور في النصف الثاني من هذا العام، وسط مظاهر حفاوة بالغة، كلاً من البرازيل والأرجنتين والأورغواي.

وفي أيلول (سبتمبر) يكتب قصيدته الرائعة «**مرتفعات ماتشو بيتشو**».

١٩٤٦ ـ تقلده الحكومة المكسيكية وساماً.

يعين مديراً وطنياً للدعاية، في الحملة الانتخابية التي يخوضها غابرييل غونثالث بيديلا، مرشحاً لرئاسة تشيلي.

Twitter: @ketab_n

تُطبع بعض أعماله في تشيكوسلوفاكيا، والدانمرك، والولايات المتحدة، والبرازيل.

في فصل الربيع الجنوبي (الخريف الأوروبي)، يتعرف على ماتيلدي أوروتيا.

وفي الثامن والعشرين من كانون الأول (ديسمبر)، يحصل على قرار قانوني ينص على أن اسمه الشرعي هو بابلو نيرودا.

١٩٤٧ ـ يُصدر ديوانه «**الإقامة الثالثة**».

تُجمع أشعاره كاملة لأول مرة، وتُنشر في تشيلي تحت عنوان «**الإقامة في الأرض**». وفي السابع والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) ينشر في كاراكاس ـ بعد أن منعته الرقابة في تشيلي ـ نصاً بعنوان: «**رسالة خاصة إلى ملايين البشر**»، وبسبب ذلك، يبدأ الرئيس غونثالث بيديلا بمحاكمته سياسياً.

١٩٤٨ ـ في السادس من كانون الثاني (يناير)، يلقي نيرودا، في مجلس الشيوخ، خطاباً شهيراً يُنشر في ما بعد، تحت عنوان «**إني أتهم**».

وفي الثالث من شباط (فبراير) يقرّ المجلس الأعلى تجريده من حصانته البرلمانية. وبعد يومين من ذلك، تُصدر المحاكم القضائية أمراً باعتقاله.

ينتقل إلى السرية. ويكتب في هذه الأثناء «**النشيد الشامل**». ويشارك بنشاط، في الجهد السياسي للمعارضة.

Twitter: @ketab_n

تقام في العديد من بلدان العالم، مهرجانات تضامن مع الشاعر. وتكرس له بعض المجلات أعداداً خاصة: فمجلة «آدام» مثلاً ـ وهي مجلة عالمية تصدر في لندن ـ تكرس عدداً خاصاً وشاملاً حول نيرودا وأعماله.

١٩٤٩ ـ في اليوم الرابع والعشرين من شهر شباط (فبراير) يتمكن من مغادرة تشيلي، وذلك باجتياز سلسلة جبال الأنديز، من منطقتها الجنوبية.

وبعد شهرين، يحضر المؤتمر العالمي الأول لأنصار السلام، ويُعين عضواً في مجلس السلم العالمي: وكان هذا هو أول ظهور علني له، بعد خمسة عشر شهراً من الحياة السرية.

في حزيران (يونيو) يسافر إلى الاتحاد السوفييتي. ويزور بولونيا وهنغاريا في الشهر التالي.

وفي شهر آب (أغسطس) يذهب إلى المكسيك، برفقة الشاعر بول إيلوار، للمشاركة في أعمال المؤتمر الأمريكي اللاتيني لأنصار السلام الذي عُقد هناك.

يضطره المرض إلى البقاء في المكسيك حتى نهاية العام، فيلتقي من جديد، بماتيلدي أوروتيا.

ينشر كتاب «**الوطن العذب**». كما يرى النور، عدد من كتبه أو مختارات من أشعاره، صدرت في ألمانيا، وتشيكوسلوفاكيا، والصين، والدانمرك، وهنغاريا، والولايات المتحدة، والاتحاد

Twitter: @ketab_n

السوفييتي، والمكسيك، وكوبا، وكولومبيا، وغواتيمالا، والأرجنتين.

١٩٥٠ ـ يصدر «**النشيد الشامل**» في المكسيك، بطبعتين في آن واحد (كما تصدر في تشيلي طبعتان أخريان، وكلتاهما في ظروف السرية).

يسافر إلى غواتيمالا، وبراغ، وباريس، وروما، ونيودلهي. ويُستقبل بالحفاوة، من جانب السلطات، ومن جانب الجمهور، أينما حلّ.

تُترجم أشعاره إلى الهندوسية، والأوردية، والبنغالية.

وفي تشرين الثاني (نوفمبر) يحضر المؤتمر العالمي الثاني لأنصار السلام الذي عقد في صوفيا، ترافقه ماتيلدي أوروتيا.

ولدى انتهاء أعمال المؤتمر، يتلقى مع بيكاسو وفنانين آخرين، الجائزة الدولية للسلام، عن قصيدته «**فليستيقظ الحطاب**». ويدعوه اتحاد الكتّاب التشيكوسلوفاكيين لقضاء فترة استجمام في قلعة دوبريس.

تصدر طبعات جديدة من نشيده الشامل، في المكسيك، وتشيلي، والولايات المتحدة، والصين، وتشيكوسلوفاكيا، وبولونيا، والسويد، وروما، والهند، والاتحاد السوفييتي. والطبعة التي صدرت في هذا البلد الأخير، مؤلفة من ربع مليون نسخة.

١٩٥١ ـ عام أسفار متواصلة. يبدؤها بجولة في إيطاليا، حيث

Twitter: @ketab_n

يلقي بعض أشعاره في فلورنسه، وتورين، وجنوه، وروما، وميلانو.

وفي شهر آذار (مارس) يذهب إلى باريس، وفي أيار (مايو) إلى موسكو وبراغ، وفي آب (أغسطس) إلى برلين، إلى مهرجان كارلو فيفاري السينمائي، ومهرجان مورافيا للفن الشعبي.

يركب بعد ذلك، القطار السيبيري الأسطوري، ويزور جمهورية منغوليا الشعبية. ومن هناك يجتاز الحدود إلى بكين.

وقد صار في هذا العام أيضاً، أوسع الشعراء الناطقين بالإسبانية، شهرة عالمية، في كل العصور. فإضافة إلى الترجمات التي كانت متداولة في أنحاء العالم، ظهرت ترجمات أخرى من أشعاره، إلى البلغارية، والهنغارية، والإيسلندية، والإيديشية، والعبرية، والكورية، والفيتنامية، واليابانية، والعربية، والتركية، والأوكرانية، والأوزبكية، والبرتغالية، والسلوفاكية، والجيورجانية، والأرمنية.

١٩٥٢ ـ يقيم في إيطاليا، وتسافر زوجته ديليا دل كاريل إلى تشيلي.

وفي شهر شباط (فبراير) يبدأ بكتابة ديوان «**الكرمة والريح**» في كابري.

تصدر طبعة خاصة، ودون ذكر اسم المؤلف، من ديوانه «**أشعار القبطان**».

Twitter: @ketab_n

يسافر إلى برلين والدانمرك، حيث يفاجأ بإلغاء أمر الاعتقال الصادر بحقه، منذ ثلاث سنوات، فيعود إلى سنتياغو في الثاني عشر من آب (أغسطس)، وتقام مهرجانات تكريم واسعة، احتفاء بعودته.

يستقر للإقامة في بيته، في شارع لينتش، ويقوم خلال الشهور التالية بجولة على تيموكو ومناطق أخرى في تشيلي.

في شهر كانون الأول (ديسمبر) يُعين عضواً في لجنة التحكيم لجائزة السلام العالمية في موسكو.

يبدأ بكتابة ديوان «**الأغنيات البدائية**»، وببناء داره التي أسماها «لاتشاسكونا».

١٩٥٣ ـ يقوم بتنظيم **المؤتمر القاري للثقافة** الذي عُقد في سنتياغو، في شهر نيسان (أبريل).

وفي العشرين من كانون الأول (ديسمبر)، يُمنح جائزة ستالين للسلام (التي صارت تُعرف في ما بعد، بجائزة لينين).

١٩٥٤ ـ ينشر ديوانيه: «**أغان بدائية**» و«**الكرمة والريح**».

تقام احتفالات عامة بمناسبة العيد الخمسين لميلاده، وسط تكريم عالمي، وتحضر إلى سنتياغو شخصيات من العالم كله، للاحتفال بالمناسبة.

يهدي مكتبته الخاصة وثروات أخرى إلى جامعة تشيلي. وتقرر الجامعة بدورها، تمويل مؤسسة نيرودا لتطوير الشعر.

Twitter: @ketab_n

يتوالى نشر طبعات وترجمات جديدة من أشعاره، في بلدان عديدة.

١٩٥٥ ـ ينفصل عن زوجته ديليا دل كاريل.

ينتهي من بناء بيته المسمى «لاتشاسكونا»، وينتقل ليعيش فيه مع ماتيلدي أوروتيا.

تظهر في هذا العام، ترجمات جديدة بالألمانية، والإيطالية، والرومانية، والعربية، والفارسية.

يسافر إلى الاتحاد السوفييتي والصين، وإلى بلدان اشتراكية أخرى.

ولدى عودته إلى أميركا، يلقي محاضرات وأشعاراً في البرازيل والأورغواي، ويمضي إجازة لبعض الوقت، في توتورال، التابعة لولاية قرطبة الأرجنتينية.

١٩٥٦ ـ ينشر ديوان «**أغان بدائية جديدة**».

١٩٥٧ ـ تنشر دار النشر لوسادا، في بوينس آيرس، الطبعة الأولى من «**أعمال نيرودا الكاملة**».

يبدأ بكتابة «**مئة قصيدة حب**».

يسافر في شهر نيسان إلى بوينس آيرس، حيث تعتقله الشرطة، ويمضي يوماً ونصف اليوم، في السجن الوطني، ثم يغادر الأرجنتين، دون أن يقيم الآماسي الشعرية التي كان مقرراً إقامتها.

Twitter: @ketab_n

ويبدأ على إثر ذلك، رحلة إلى الأماكن التي عرفها في شبابه: رانغون، كولومبو، ومدن أخرى في الشرق.

ولدى عودته، يعين رئيساً لجمعية الكتّاب في تشيلي. وينشر ديوانه «**كتاب الأغاني الثالث**».

١٩٥٨ ـ عام انتخابات رئاسية في تشيلي، وعام نشاطات سياسية واسعة لنيرودا.

ينشر ديوانه: «**شاذ**».

١٩٥٩ ـ يسافر عبر فنزويلا، وسط الحفاوة والتكريم، طوال خمسة شهور. وفي السفارة الكوبية في كاراكاس، يتعرف على فيدل كاسترو.

ينشر كتابيه: «**إبحارات وعودات**»، و«**مئة قصيدة حب**».

١٩٦٠ ـ يسافر إلى أوروبا في شهر نيسان (أبريل)، وينهي كتابه المهدى إلى كوبا «**أغنية مفخرة**»، وهو على متن السفينة «لويس لومبيه».

١٩٦١ ـ ينشر «**أحجار تشيلي**» و«**أغنيات احتفالية**». كما تُطبع النسخة المليون من كتابه «**عشرون قصيدة حب وأغنية يائسة**» بالإسبانية. وتظهر طبعات جديدة من كتبه في فرنسا والولايات المتحدة.

١٩٦٢ ـ عضو أكاديمي في كلية الفلسفة والتربية، في جامعة تشيلي.

Twitter: @ketab_n

ينشر ديوانه «**صلاحيات كاملة**».

يسافر إلى إيطاليا، وفرنسا، وبلغاريا، والاتحاد السوفييتي.

١٩٦٣ ـ يظهر في مجلة *Bormiers Litterata Magasia*، الصادرة في استوكهولم، مقال مطول عن نيرودا، كتبه آرثر ليندكفيست، وهو عضو مؤثر في الأكاديمية السويدية. فيفَسَّر الأمر على أنه تأكيد للاشاعات الكثيرة القائلة إن جائزة نوبل ستُمنح للشاعر.

١٩٦٤ ـ ينشر ديوان «**ذكريات إيسلا نغرا**»، وترجمته لمسرحية شكسبير «روميو وجولييت» التي عُرضت في سنتياغو، في العام نفسه.

تنظم المكتبة الوطنية التشيلية ندوة عن الأعمال النيرودية، بمناسبة الذكرى الستين لميلاد الشاعر.

يشارك في الحملة لانتخابات الرئاسة.

١٩٦٥ ـ في شهر شباط (فبراير) يسافر إلى أوروبا، حيث يبقى طوال العام.

وفي حزيران، يُمنح درجة دكتوراه فخرية في الفلسفة والآداب، من جامعة أكسفورد، وهي درجة تمنح للمرة الأولى إلى أمريكي جنوبي.

يمضي فترات في باريس وبودابست. ويكتب في هذه المدينة الأخيرة: «**بينما نحن نأكل في هنغاريا**» ـ وهو كتاب مشترك مع

Twitter: @ketab_n

الغواتيمالي ميغيل آنخل أستورياس ـ وقد نُشر الكتاب بخمس لغات، في وقت واحد.

يحضر اجتماع **نادي القلم** في «بليد» بيوغسلافيا، ومؤتمر السلام في هلسنكي (فنلندا).

ثم يذهب إلى الاتحاد السوفييتي، كعضو في هيئة تحكيم جائزة لينين. ويعود إلى تشيلي في كانون الأول (ديسمبر).

١٩٦٦ ـ يسافر إلى الولايات المتحدة، كضيف شرف على اجتماع لـ «نادي القلم». ويلقي أشعاره في نيويورك، وبركلي، وواشنطن.

كما يلقي قصائده في المكسيك والبيرو. ويقلده هذا البلد الأخير وسام (أوردن دل سول).

وفي الثامن والعشرين من تشرين الأول (أكتوبر)، تصدر في تشيلي، الموافقة القانونية على زواجه من ماتيلدي أوروتيا، وكانا قد عقدا قرانهما في الخارج.

ينشر كتاب «**فن العصافير**».

يتلقى جائزة «اتينيا»، من جامعة كونثيبثيون التشيلية، عن مجمل أعماله.

١٩٦٧ ـ يُمنح جائزة فيارجيو العالمية في إيطاليا.

ينشر ديوانه «**أغنية البحارة**»، ومسرحيته «**تألق وموت خواكين**

Twitter: @ketab_n

موريتا»، وهي مسرحيته الأولى والوحيدة. وفي هذه السنة أيضاً، تُمثل المسرحية في سنتياغو.

تصدر طبعة جديدة ومزيدة من أعماله الكاملة.

١٩٦٨ ـ ينشر ديوان «**أيادي النهار**».

يتلقى وسام جوليو كوري، ويُختار عضو شرف في الأكاديمية الأمريكية للفنون والآداب، وفي الجمعية الوطنية للفنون والآداب.

يسافر إلى أورغواي، والبرازيل، وكولومبيا، وفنزويلا.

يبدأ بكتابة عمود صحفي خاص في مجلة «إرثيا» التي تصدر في سنتياغو.

١٩٦٩ ـ ينشر أربعة كتب جديدة هي: «**نهاية العالم**»، و«**مازال**»، و«**مختصر**»، و«**كأس الدم**».

يُختار عضواً في الأكاديمية التشيلية للغة. ويُمنح لقب دكتور شرف من الجامعة الكاثوليكية في تشيلي. كما يمنحه مجلس الشيوخ التشيلي الميدالية الفضية التي تُمنح لأبناء الوطن اللامعين.

في الثلاثين من أيلول (سبتمبر)، يرشحه الحزب الشيوعي التشيلي لرئاسة الجمهورية.

١٩٧٠ ـ يسحب ترشيحه للرئاسة، لمصلحة الدكتور سلفادور ألليندي، المرشح المشترك للأحزاب الشعبية.

Twitter: @ketab_n

يسافر إلى أوروبا لمشاهدة افتتاح عرض مسرحيته «**تألق وموت خواكين موريتا**» في السوربون بباريس.

ينشر كتابين جديدين: «**السيف المتقد**» و«**أحجار السماء**».

١٩٧١ ـ تُنتج القناه ١٣ في التلفزيون التشيلي، فيلماً بعنوان «**تاريخ وجغرافية بابلو نيرودا**».

وفي الثاني عشر من كانون الثاني (يناير)، يوافق مجلس الشيوخ التشيلي على تعيينه سفيراً للبلاد في فرنسا. ويشغل هذا المنصب بدءاً من شهر آذار (مارس).

وفي الثاني عشر من تشرين الأول (أكتوبر)، يُمنح جائزة نوبل للآداب.

يسافر إلى استوكهولم، لتسلم الجائزة. ومن هناك، يذهب إلى بولونيا لحضور افتتاح مسرحيته «**خواكين موريتا**».

١٩٧٢ ـ ينشر ديوان «**جغرافية باطلة**».

وفي تشرين الأول (أكتوبر) يُعين عضواً في المجلس الاستشاري لليونسكو، لمدة أربع سنوات.

وفي تشرين الثاني (نوفمبر) يعود إلى وطنه، حيث يتلقاه الشعب التشيلي بالتكريم والحفاوة، في مهرجان حاشد في الستاد الوطني.

١٩٧٣ ـ في الخامس من شباط (فبراير) يستقيل من سفارته في باريس، لأسباب صحية، ويقيم في بيته، في إيسلا نيغرا.

Twitter: @ketab_n

يظهر ديوانه «**تحريض ضد النيكسونية وإشادة بالثورة التشيلية**»، وهو الكتاب الأخير الذي يُنشر في حياته.

يوجه نداء إلى المثقفين الأمريكيين، ينبههم فيه إلى وضع تشيلي الذي يعتبره «فيتنام صامتة».

وفي الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) يقع، فعلاً، الانقلاب العسكري الذي قضى على حكومة وحياة الرئيس سلفادور أللليندي. وبعد أيام قليلة، يموت نيرودا، في ليلة الثالث والعشرين من أيلول (سبتمبر)، ضحية سكتة قلبية.

Twitter: @ketab_n

كأس الدم

(١٩٠٤ ـ ١٩٢٠)

«هناك في الضوء الذاهل،
حُسم تحالفي
مع الأرض».

وُلد ريكاردو إليثار نيفتالي ريس باسو ألتو ـ الخالد باسم بابلو نيرودا ـ يوم الثالث عشر من تموز (يوليو) ١٩٠٤، في «برّال»، وهي بلدة كروم وأعناب، تابعة لمقاطعة «لينارس»، في وسط الأراضي التشيلية المعذبة والعجيبة. ولكن «برّال» لن تكون المشهد الذي سيتذكره الشاعر ويستحضره، ولا البلدة الأساسية التي سيسميها بألف طريقة، طوال نصف القرن الذي مارس خلاله كتابة الشعر. فقد أخذوه، وهو في الثالثة من عمره، إلى بلدة «تيموكو»، «حيث يُولد المطر»، والحدّ الجنوبي للحضارة في ذلك الحين. فإلى الجنوب منها، لا يخاطر في الذهاب سوى المتبقين على قيد الحياة من الهنود الأروكانيين الصبورين الصامتين. إن تيموكو،

Twitter: @ketab_n

المساطة دائماً بوابل أمطار السماوات الجنوبية، في المنطقة التي تضيق فيها تشيلي حتى تكاد تختنق، بين سلسلة جبال الأنديز والمحيط؛ هي محطة للسكة الحديد، ومخازن للخردوات المتنوعة، وبعض المصالح القليلة الأخرى، وبضع مئات من البيوت الخشبية، ذات الأرضيات الواسعة والجدران القاتمة. وعبر باحات تلك البيوت المتصلة بعضها ببعض تقريباً، كانت العائلات «تتبادل الأدوات أو الكتب أو حلويات أعياد الميلاد، أو المراهم للدلك، أو المظلات أو الطاولات والكراسي». تلك البيوت التقليدية التي بها «شيء من المعسكرات»، حيث «تبدو لدى دخولها براميل، وأدوات عدة، وأسرجة خيول، وأشياء أخرى يقصر عنها الوصف»، كانت ترسم، بصورة إعجازية، شكل قرية (وقد توسعت تلك القرية حتى صارت في الوقت الحالي مدينة تضم مئة وعشرين ألفاً من السكان) مفتوحة مثل ثغرة، وسط صمت وخضرة الغابات الجنوبية الكثيفة. إلى هذه الغابات ـ التي تعتبر من أكثف غابات الدنيا، باشجارها العملاقة المتشابكة، وبأحراجها المفعمة باخضرار الرطوبة الدائمة ـ يجب الذهاب للبحث عن أعمق مفاتيح رموز الشاعرية النيرودية: النَفَس الكوني لأشعاره، والطاقة الروحية التي تسنده.

في «**كأس الدم**» ـ وهو نص كُتب في بداية الأربعينيات، وتأخر نشره مستقلاً، ربع قرن من الزمان ـ ذكر نيرودا للمرة الأولى، تلك الغابة البدائية الغارقة بالماء (غابة الوحدانية الأسطورية، الجبل

Twitter: @ketab_n

السحري، والمكان المشيمي الذي يختصر الكون) التي ستصبح أكثر جلاء في افضل كتب سنواته الأخيرة.

عندما كنت أرجع مشوشاً في رحلات القطارات العجيبة، كما كان يرجع الأسلاف على صهوات جيادهم، أبقى ساهماً ومتفكراً في خصوصياتي وحسب: فأنا أنتمي إلى جزء من أرض الجنوب البائسة، قريباً من أروكانيا. وقد كان تحركي منذ أبعد الساعات، محكوماً بأن تلك الأرض الغابيّة والغارقة دوماً بالأمطار، تمتلك من أسراري، سراً لا أعرفه، وأن عليّ أن أتوصل إلى معرفته، فابحث، تائهاً، فاقداً صوابي، وأتفحص الأنهار الطويلة، والنباتات الغريبة التي لا يمكن تصورها، وأكوام الخشب، وبحار الجنوب، مغرقاً نفسي في علم النبات وفي المطر، دون أن أصل إلى هذا الامتياز الزبدي الذي ترسيه الأمواج وتحطمه، دون أن أصل إلى هذا المتر الأرضي الخاص، دون أن ألمس رمالي الحقيقية. عندئذ، وبينما القطار الليلي يجتاز، صاخباً، المحطات الخشبية والفحمية، وكأنه يصطدم وسط بحر الليل، بصخور مختفية تحت الماء، أشعر بأني أتضاءل وأصير تلميذاً، أصير طفلاً في برد المنطقة

Twitter: @ketab_n

الجنوبية.. مدرستي في ملامح الشعب، وأمام قلبي، غابات نهاية العالم الرحيبة الرطبة.

والماء ـ الذي لولا وجوده الدائم لما كان بالإمكان تصور الغابة الجنوبية ـ يظهر أيضاً، في النص، وكأنه يقيم صلة وصل بين الشاعر وأكثر منابع الشعر سرّية. فعندما كان على نيرودا، إخراج جثة أبيه، بعد أسابيع من موته، ليدفنها في مكان آخر، كانت رطوبة المنطقة قد شققت التابوت، خلال ذلك الوقت القصير، و:

«رأينا كميات كبيرة من الماء تنز منه، كميات كأنها ليترات لا تنتهي، تسيل من جوفه، من جوهره.

لكن ثمة تفسيراً لكل ذلك؛ فهذه المياه التراجيدية كانت أمطاراً. ربما هي أمطار يوم واحد فقط، أو ربما هي أمطار ساعة واحدة من مطر شتائنا الجنوبي. وقد اخترق هذا المطر السقوف والحواجز والطُوب ومواد أخرى، حتى وصل إلى قبر أبي. حسن... إن هذه المياه الأصيلة والمخيفة، نبهتني مرة أخرى، بانسكابها السحري، إلى علاقتي المتواصلة بحياة محددة، وبمنطقة وميتة محددتين».

وكأبيه («لقد توفي والدي في تيموكو، لأنه كان رجلاً من أجواء أخرى. وهو مدفون هناك، في واحدة من أكثر مقابر الدنيا أمطاراً») كان نيرودا أيضاً مُنْتَزعاً من أودية النبيذ والشمس

Twitter: @ketab_n

الساطعة، إلى الأرض الظليلة الدائمة الرطوبة. وفيها سيترعرع ـ هشاً وخجولاً، صموتاً ومتوحداً ـ متأثراً حتى الأعماق، بالاستعراض المهيب الذي يتطور أمام حواسه. ليس لأنه شاعر وحسب، وإنما باعتباره عالم الرخويات الذي سيصير إليه نيرودا ـ إذ أصبح يملك مجموعة من أهم مجموعات القواقع في العالم ـ، ومشيد البيوت الذي لا يكل ـ من البيوت التي بناها: **إيسلا نغرا**، و**لاتشاسكونا**، و**لاسيباستيانا** ـ، فضلاً عن أسباب أخرى كثيرة، كانت تدفع الرحالة الشارد والمذهول إلى العمل من أجل إعادة خلق العالم، دون كلل. إن هذه الشخصيات المتعددة لنيرودا، تتحد جميعها في المنهل المشترك لطفل تيموكو الذي أحب الحشرات، والعصافير، والثمار، والذي كان قليل المودة تجاه الانضباط، ولاعب كرة القدم السيئ. ولكنه أيضاً: القارئ النهم، والشاعر المبكر، دون جمهور مستمعين، في ذلك الحين.

«أصعد إلى غرفتي في الأعلى. وأستغرق في قراءة سالغاري. ينهمر المطر كشلالات. وفي لحظة، يلف الليل والمطر العالم. وهناك أكون وحيداً، أكتب على دفتر الحساب أبياتاً من الشعر».

أي عام تستحضر هذه الكلمات؟ تقول مرغريتا أغييري، إن نيرودا كان يكتب الشِّعر قبل أن يتم الحادية عشرة من عمره، مستندة في ذلك إلىٰ بطاقة بريدية مؤرخة في ٣٠ نيسان (أبريل)

Twitter: @ketab_n

١٩٥١، يهدي بها قصيدة إلى زوجة أبيه (أو «أمي» مثلما اعتاد أن يناديها دائماً)، وتحتفظ بهذه البطاقة لاورا رييس، شقيقة الشاعر، في ارشيفها الخاص. ويبدو أن الحادثة التي يتذكرها نيرودا، وخلّفها مكتوبة، تعود إلى ما قبل تلك السن.

في طفولتي المبكرة، وكنت حينذاك قد بدأت تعلم الكتابة، شعرت ذات مرة، بانفعال غامر، فسطَّرت بضع كلمات شبه مقفاة، ولكنها كانت غريبة عليّ، فهي مختلفة عن الحديث اليومي. أعدت نسخها على ورقة نظيفة، وأنا أسير قلق عميق، وشعور كنت أجهله حتى ذلك الحين.. نوع من الكآبة والأسى. كانت قصيدة موجهة إلى أمي، أعني إلى المرأة التي عرفتها كأم لي، إلى زوجة أبي الملائكية التي حمى ظلها الرقيق طفولتي كلها. كنت عاجزاً تماماً عن تقييم نتاجي الأول، فأخذت القصيدة إلى أبويّ. كانا في غرفة الطعام، غارقين في إحدى هذه المحادثات التي تدور بصوت هامس، وتفصل أكثر من نهر بين عالم الأطفال وعالم الكبار. مددت إليهما الورقة، وعليها تلك السطور. وكنت ما أزال أرتعد من الزيارة الأولى للوحي. تناولها أبي بيده، وهو ساهٍ، وقرأها وهو ساهٍ، وأعادها إليّ وهو ساهٍ، ثم قال:

Twitter: @ketab_n

ـ من أين استنسختها؟

وتابع حديثه مع أمي، بصوت خفيض، حول شؤونهما المهمة والملحة.

إن هذه الحكاية تبدو مفرطة بالنموذجية، مما يشكك في صحتها. ولكن هناك، في جميع الأحوال، عنصرين حقيقيين: عدم مبالاة، وليس عدائية، عامل سكة الحديد رييّس لنشاطات ابنه الشعرية (وهذا هو سبب الأسماء المستعارة العديدة التي استخدمها الشاعر في بداياته، إلى أن استقر على الاسم الذي اشتهر به)، والنشاط المبكر للشاعر، ونتائجه الباهرة في بداية صباه تكشف عن أساليب تقنية لا سبيل إلى مقارنتها بالنتائج التي توصل إليها غيره من الكتّاب المبكرين.

نحن نعرف، بصورة مؤكدة، أنه نشر قصيدته الأولى («**عيناي**»، في مجلة كورّيبويلا) وهو في الرابعة عشرة من عمره، وأنه فاز بالجائزة الأولى في مهرجان الربيع في تيموكو، بعد سنتين من ذلك. ونعرف أيضاً أنه كان يملك ديوانين منجزين هما: «**الجزر الغربية**» و«**أتعاب بلا طائل**»، وأنه لم ينشرهما، ولكنه استخدم موادهما في بعض موضوعات ديوانه «**غسقيات**»، وهو الكتاب الأولي الذي بدأ يتبلور في خياله حينذاك. ومن الواضح أن الطموح على صعيد الشكل، والمهارة التقنية البارزة في «**غسقيات**» (هذا الكتاب الذي لم يُدخل عليه مؤلفه أية تعديلات بعد صدور طبعته

Twitter: @ketab_n

الثانية عام ١٩٢٦)، ليس أمراً يمكن اكتسابه بين عشية وضحاها، مما يدفع إلى الافتراض بأن بداياته السابقة، كانت جديرة بالاعتبار.

لقد كنتُ مدفوعاً على الدوام، إلى التفكير في تفصيل مثير ومغرٍ، عن صداقة أتى نيرودا نفسه على ذكرها في مذكراته. ففي عام ١٩٢٠، عندما أنهى الشاعر دراسته في الليسيه، وكان يتهيأ للقفز إلى سنتياغو ليعيش مغامرته العاصمية...

> في ذلك الوقت، وصلت إلى تيموكو سيدة طويلة القامة، ترتدي ملابس طويلة، وتنتعل حذاء ذا كعب واطئ. كانت ملابسها بلون الرمل. إنها مديرة الليسيه، قدمت إلى مدينتنا الجنوبية، من ثلوج «ماغايانيس»... (...) لها ابتسامة عريضة ناصعة في وجهها الملوح بسبب الدم والطقس... (...) لم تُثر دهشتي عندما كانت تُخرج، من ملابسها الكهنوتية، كتباً تقدمها إليّ، فألتهمها. وهي من جعلتني أقرأ للأسماء العظيمة الأولى في الأدب الروسي التي أثرت بي كثيراً.

كان عمرها واحداً وثلاثين عاماً، وعمر الشاعرالطفل ستة عشر عاماً. وهذا لم يمنع قيام صداقة ستستمر طويلاً، بطول حياة المعلمة. كان اسمها لوثيا غودي. ولكنها مثل صديقها الجديد، كانت تكتب باسم مستعار؛ فهي توقّع قصائدها باسم **غابرييلا ميسترال**.

Twitter: @ketab_n

رامي المقلاع المتحمس

(١٩٢١ ـ ١٩٢٦)

«وأجعلُ ذراعيَّ تدوران

كذراعي مروحة مجنونة...»

في شهر تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٠، يتخذ نيفتالي، بصورة نهائية، اسم بابلو نيرودا كـ «nom de guerre»؛ وفي مطلع السنة التالية، يغادر تيموكو ليتابع الدراسة، كأستاذ لغة فرنسية، في معهد سنتياغو التربوي. إن هذه الفترة من السنة، تقطع السيرة النيرودية مثل سيف. فقد خلّف وراءه أمطار الجنوب الطويلة، والمادة الأولية الكثيفة التي سيغذي بها أعماله. وسوف يُنتج الشاعر، في السنوات الخمس التالية، نصف دزينة من الكتب ـ سيبرز منها أكثر من عمل متميز في سيرورته الشعرية ـ وسيستقر نهائياً في مهنة الشعر. وعندما تنتهي هذه السنوات الخمس، يكون نيرودا قد بلغ الثانية والعشرين من عمره فقط؛ ولكنه يكون قد امتلك زمام كل الأسلحة التي ستجعل منه معيناً من الشعر لا ينضب، طوال نصف القرن التالي.

Twitter: @ketab_n

لا وجود لشيء استثنائي في حياته في هذه الفترة ـ ومع ذلك لا بأس من إيجازها ـ، ولكن في قلب شاعريته السرّي، كان ثمة شيء يترسخ وينمو، بصورة ثابتة ومستقرة. ومع أن النجاح الباهر تأخر في أن يكون رفيقه اليومي، خلال مرحلة «**شفقيات ماروري**» ـ اسم شارع النزل الطلابي الذي عاش فيه ـ فإن نيرودا كان يدرك أن قدره لن يعرف وفاء أكبر من وفاء الكلمة. وبعد سنوات طويلة، بمناسبة تكريمه في العيد الستين لميلاده، سيتذكر نيرودا تلك السنوات التنبؤية؛ سنوات «**رامي المقلاع المتحمس**».

هذا الكتاب الذي أثارته عاطفة حب عارمة، كان استجابة لمشيئة طوري الأول في الشعر: إرادة جمع شمل الإنسان، والطبيعة، والعواطف، والأحداث ذاتها التي تتطور هناك، في وحدة واحدة. لقد كتبتُ، بجنون محموم، تلك القصائد التي أعتبرها، بعمق، قصائدي. وأعتقد بأني انتقلت بها من الفوضى إلى نوع من التخطيط الشكلي.

إن التجارب الأولى، والانحدارات الأولى إلى واقع المدينة التي ولجها ذلك الابن المتوحد للغابات، لم تخل، مع ذلك، من الغرابة، وحتى من الدهشة.

كان الكتّاب في سنتياغو، يعيشون سجناء في صناديق. فهم يخرجون من الصندوق الذي يعملون

Twitter: @ketab_n

فيه، ليحشروا أنفسهم في صندوق آخر، له شكل المقهى أو البار، ثم يمضون بعد ذلك ليناموا في صندوق له شكل البيت. هكذا كنتُ أرى الحياة الأدبية. كيف يستطيعون العيش دون أن يهرعوا، كل مساء، لجمع أزهار الكوبيهوي، أو لملاحقة طيور البطريق، مثلما يحدث على شواطئ إمبريال السفلى؟

وما إن تنقضي المفاجأة، حتى يبدأ بالخوض في هذه الحياة التي كانت قدراً له؛ فتصبح مشاركته في مجلة «كلاريداد» أوسع؛ ويترجم ريلكه وأناتول فرانس، ويمارس النقد الأدبي، وينشر ـ قبل أن يتم العشرين من عمره ـ كتابين هما: «**غسقيات**»، و«**عشرون قصيدة حب وأغنية يائسة**». لقد صار وجهاً معروفاً وسط هذه البوهيمية المضطربة الهائجة، بوهيمية الطليعة الأدبية التشيلية، لما بعد الحرب العالمية الأولى، وصديقاً لأبرز الأسماء فيها: بدءاً من «دكتاتور الأدب الشاب» أليريو أويارتون «البودليري الشاحب، ابن عصر الانحطاط المفعم بالمزايا، باربا جاكوب التشيلي، المعذب، المصاب بلوثة»، وانتهاء بروساميل دل بايي، مروراً بآنخل كوتشاغا، وخواكين تيفوينتيس سيبولفيدا، وراؤول أتوكار، وهوميرو ارثي، وألبيرتو بالديبيا ـ «العزيز جثة» كما اعتادوا تسميته، لنحوله وشحوبه ـ، دون نسيان الاستاذ الارستقراطي بيدروكيين الذي علمه أساليب «فئة الانتليجنسيا البليغ في التواصل»، أو تأثير خوان غاندولفو، أستاذه المثقف الآخر الذي أهدى إليه نيرودا

Twitter: @ketab_n

ديوانه «**غسقيات**». إلا أن الغائب الأكبر في تلك المرحلة، هو فيثنتي هويدوبرو ـ الذي لم يحبه نيرودا أبداً، إلا بصورة مهذبة ودبلوماسية، واعترف بأنه لم يكن يشاطره شاعريته، ولم يفهمها ـ وقد كان يمضي في تلك السنوات مُشعاً ببريقه الباريسي، على شفا الضجر وخيبة الأمل ـ ولكن بين جميع هؤلاء، كان ألبيرتو روخاس خيمينيث هو، دون شك، الصديق الأساسي، محرك الحياة، والظرافة التي ستنتزع الشاب الريفي، بقسوة، من خجله، وإصراره على نتاجه الذي كان يستخرجه، في ذلك الحين، من عزلته السوداوية. هذا «المبذر الكبير بحياته» كان «أنيقاً ورشيقاً، رغم البؤس الظاهر الذي يتخايل وسطه، مثل عصفور مذهب»، إنه صاحب «السلوك المتعفف الأبي، والتفهم السريع لأدق النزاعات، والمعرفة الجذلى، والقابلية الشهية لكل الأشياء الحيوية. لقد تذكره نيرودا في صورة من أجمل الصور في مذكراته:

> كتب وفتيات، زجاجات وسفن، مسالك وأرخبيلات، كل ذلك كان يعرفه ويستخدمه حتى في أدق دقائقه (...) لم يُعدني أبداً بمظهره الارتيابي، ولا بعصفه الكحولي. بيد أني ما زلت أذكر حتى الآن، بحنين شديد، وجهه الذي كان يضيء كل شيء، وجعل الجمال يتطاير في كل الأنحاء، كما لو كان يبعث الحركة في فراشة مختبئة (...) كان يكتشف شعراء من فرنسا، وقوارير خمر قاتمة مدفونة في

Twitter: @ketab_n

الأقبية. وكان يبعث برسائل غرامية إلى بطلات فرانسيس جيمس. لقد كانت أبياته الشعرية تتجعد في جيوبه، دون أن تنشر. وهي لم تنشر حتى الآن.

ويعتبر أورلاندو أويارثون ـ شقيق أليريو ـ الذي نشرت مجلة **أورورا** مذكراته، في سنتياغو عام ١٩٦٤ ـ أنّ صداقة روخاس خيمينيث، كانت عاملاً حاسماً بالنسبة للخيال النيرودي، في التخلي عن مهنة التعليم، والاتجاه بكل الإمكانيات، نحو الأدب؛ فقد كتب أورلاندو يقول: «جدران الطين المطلية بالكلس الأبيض، في غرفة بابلو، كانت مغطاة برسوم، وأبيات شعر، وعبارات هازلة، تسعى كلها لإخراج بابلو من انزوائه السوداوي؛ كتابات من نوع: ليس مستحسناً أن يحيا المرء وحيداً!».

وتحدثنا مرغريتا أغييري أن روخاس خيمينيث، هذه الشخصية الروائية، قد توفي في سنتياغو، وهو في أوج الشباب، يوم ٢٥ أيار (مايو) ١٩٣٩، بعد إصابته بذات الرئة التي نزلت به لأنه «ترك معطفه مرهوناً في البار الأخير، حيث كان يشرب».ويتلقى نيرودا، وهو قنصل، حينئذ، في برشلونة، نبأ موته، بحزن شديد.

كنتُ أعلم أنه سيموت، بين لحظة وأخرى، فحياته الجنونية كانت استمراراً لانتحار آخر. ولكن يبدو لي أن ثمة خيانة في اختطاف الموت له، دون أن أكون إلى جانبه. لقد كانت لصداقته قيمة كبيرة جداً في

Twitter: @ketab_n

سنواتي الأولى. فبينما كان يسخر مني، برقته اللامتناهية، ساعدني على التخلص من نبرتي القاتمة (...) لقد كان مثل بحار ماجن، أدبيّ بلا حدود، وكاشف عن روائع صغيرة وحاسمة من الحياة العادية.

وتكريماً لذكرى صديقه الميت، أجرى نيرودا طقساً كطقوس أرفيوس ـ برفقة الرسام اساياس كابيثون ـ وذلك بتقديم شمعتين عملاقتين للقديسة شفيعة البحارة الصيادين، في كتدرائية سانتا ماريا دل مار، وقضاء ليلة في الميناء، والسكر بنبيذ أخضر. كما فعل شيئاً آخر، شيئاً أكثر حسماً: كرس له أفضل مرثية كتبها، وهي واحدة من قمم المراثي المكتوبة بالإسبانية، في هذا القرن، ومن أكثرها لوعة، بعنوان: **ألبيرتو روخاس خيمينث يجيء طائراً.**

من بين الريش المخيف، من بين الليالي،
من بين أزهار المانوليا، وبين البرقيات،
من بين ريح الجنوب وريح الغرب البحرية،
تجيء طائراً.

.....

يوجد «رُوم»، وأنت وأنا، وروحي حيث أبكي،
ثم لا أحد، ولا شيء، سوى سلّم
محطم الأدراج، ومظلة:

Twitter: @ketab_n

وتجيء طائراً.
إلى البحر هناك. أَنزلُ ليلاً وأسمعك
تأتي طائراً تحت البحر، وحيداً،
تحت البحر الذي يسكنني، قاتماً،
تجيء طائراً.
أَسمعُ خفق جناحيك، وطيرانك البطيء،
ومياه الموتى تصفعني
مثل حمائم عمياء مبللة:
تجيء طائراً.
تجيء طائراً، وحيداً متوحداً،
وحيداً بين موتى، وحيداً إلى الأبد،
تجيء طائراً، دون ظل ودون اسم،
دون سكر، دون فم، دون ورد،
تجيء طائراً.

لم تكن تلك السنوات هي سنوات الصداقة وحسب، وإنما هي أيضاً سنوات الغراميات العاصفة. ومع أن نيرودا كان حذراً دائماً ـ ربما بمبالغة ـ في ما يتعلق بماضيه العاطفي، فقد أُمكن معرفة وجود حبّين كبيرين، على الأقل، في سنوات ربيعه الغرامي،

Twitter: @ketab_n

وهما: ماريسول وماريسومبرا اللتان يذكر اسميهما في مذكراته. الأولى هي الحب الذي خلّفه في تيموكو. والثانية هي الحبيبة في سنتياغو. وكلتاهما تظهران في «**غسقيات**»، وكلتاهما ـ على التوالي ـ ملهمتا القصائد الذائعة الشهرة «**عشرون قصيدة حب...**». وتعودان إلى الظهور، تحت اسميّ تيروسا وروساورا، بعد نضج الشاعر، في بعض أشعار ديوان «**ذكريات إيسلا نغرا**»

الآن، وأنتِ تأتين زائرة،
أيتها الصديقة القديمة، أيها الحب،
أيتها الطفلة اللامرئية،
أرجوكِ أن تجلسي
مرة أخرى
على الأعشاب.

يبدو لي الآن
إن رأسكِ قد تغير.
لماذا
ـ لتأتيني ـ
غطيتِ بالرماد

Twitter: @ketab_n

شعرك الفحمي الباسل
الذي حللته بيدي، في برودة
نجوم تيموكو؟

ويقول لروساورا، ابنة أحد أحياء سنتياغو الشعبية، بعد مرور أربعين سنة أيضاً:

تغير الرسام
ولم يرسم الوجوه،
وإنما العلامات والندوب،
وأنتِ ماذا تفعلين
دون ثقب
الألم والموت؟
وأنا ماذا أفعل
بين أوراق الأرض؟

وإذا كنتُ أذكر الآن، هذه النماذج من الوفاء، فلكي أُبرز ـ بصورة عابرة، وفي الهامش الصغير الذي يسمح به هذا الكتاب ـ إلحاح الذاكرة في أعمال نيرودا كلها، والورع تجاه الكائنات

Twitter: @ketab_n

والأشياء التي مرت في حياته الخاصة. ليس لهذه التفاصيل الحياتية، طبعاً، كبير أهمية (مع أنها ضرورية أحياناً للأحكام التي أقصدها)، وقد تحدث الشاعر نفسه عن ذلك في محاضرة، نصها الأصلي محفوظ في ارشيف خورخي سانهويثا.

كنتُ قد وعدتكم بتقديم تفسير لكل قصيدة من قصائدي الغزلية. لقد نسيت أن السنين قد مضت. وهذا لا يعني أني نسيت أحداً، وإنما إذا فكرنا جيداً، فإننا نقول: ما الذي ستستخلصونه من ضفائر سوداء، في شفق محدد؟ ما الذي ستستخلصونه من عينين واسعتين تحت المطر، في شهر آب؟ ما الذي أستطيع قوله عن قلبي، ولا تعرفونه؟

لنتكلم بصراحة. لم أنطق يوماً بكلمة حب ليست مخلصة، ولم أستطع أن أكتب بيتاً واحداً من الشعر، بلا حقيقة.

إن الصحيح المؤكد والباقي هو، دون شك، الكتب الستة التي كتبها خلال هذه المرحلة الغزيرة. ويكفي أن نقول: لو إن نيرودا مات أو صمت، وهو في الثانية والعشرين من عمره، فإن تلك الكتب ستكون كافية لمنحِهِ مكانة ذات مغزى في الشعر الغنائي المعاصر الناطق بالإسبانية. وحتى الكتب الصغيرة ـ «**المقيم وأمله**»، وهو نوع من «nouvelle» قاتمة، كتبها استجابة لرغبة ناشره؛

Twitter: @ketab_n

و«خواتم»، وهو مجموعة من قصائد النثر ـ تلفت الانتباه بلغتها الواثقة، مثل براعم صغيرة متفتحة على شجرة وارفة وراسخة في الأرض. أما الكتب الأربعة الأخرى، فلا بد من الحديث عنها، كل على حدة.

في محاولة منه لتجاوز «**غسقيات**»، كتب نيرودا «**رامي المقلاع المتحمس**»، وانتهى منه تماماً عام ١٩٢٤. ولكن الكتاب لم يرَ النور إلا بعد مرور عشر سنوات، وذلك بسبب رقابة الشاعر الذاتية. فبعد أن تأكد من أنه وجد الصوت العظيم المتميز الذي كان يبحث عنه، ظن أن في صفحاته التي كتب، تأثراً ظاهر الوضوح بالشاعر الاروغوائي كارلوس سابات اركاستي. وقد احتفظ نيرودا دائماً بهذا الرأي، مع أن الجزء الأكبر من أفضل أشعار الكتاب، كان يتنفس من أنفاس «**عشرون قصيدة حب وأغنية يائسة**» التي لا شك في أنها أنفاس نيرودية («أنتِ كلكِ من زبد نحيل وخفيف/ تعبرك القبلات وتضمخك الأيام») وحتى في الإيقاع العالي ـ إذا ما جردنا بلاغته الحماسية ـ الذي وصل غليه الشاعر في دواوين **الإقامة**.

امتلئي بي.

اشتاقي إليّ، استنزفيني، اسكبيني،

اقتليني كأضحية.

طالبيني، التقطيني، احتويني، خبئيني.

أريدُ أن أصير مُلكاً لأحد. مُلكاً لكِ.. إنها ساعتك.

Twitter: @ketab_n

أنا الذي مررت، قافزاً، فوق الأشياء،

أنا الهارب، العليل.

ومن الأعمال المعاصرة لهذه الجهود، يأتي ديوان «**محاولة الإنسان اللانهائي**». وربما هو من أقل كتب نيرودا قراءة، والكتاب الذي نال، دون شك، أقل قدر من تعليق الشّراح. وبعد أربعة عقود من كتابته، قدم له مؤلفه بعض الكلمات العادلة:

> لقد نظرت دائماً إلى «**محاولة الإنسان اللانهائي** على أنه إحدى البؤر الحقيقية لشعري، لأني وأنا أنظم تلك القصائد، في تلك السنوات البعيدة، كنتُ أتوصل إلى وعي لم أكن أمتلكه قبلاً. وإذا ما كانت للتعابير، أو للوضوح، أو للغموض قياسات، فإنها كذلك في هذا الكتاب، الشخصي إلى أبعد الحدود.

وعلى الرغم من كونه أكثر كتبه إحكاماً، فإن «**محاولة الإنسان...**» يتضمن، فعلاً، بعض العناصر التي سيعيد الشاعر صياغتها في نضوجه الشعري. إنني أرى الكتاب كله، وكأنه قصيدة واحدة مرتبة وفق سياق يبدأ وينتهي بما هو ليليّ: المرأة كاحتفال، البيت، السماء، المرأة كإدانة، العزلة. وبين ليلة البداية وليلة النهاية، تقوم الفروقات في الرحلة، في الإشارة المستمرة إلى طريق أو انتقال يحقق الشاعر من خلاله العبور من الرواق الرطب والكئيب، إلى التواصل. وعلى امتداد أبيات الشعر الثلاثمئة التي

Twitter: @ketab_n

يجتازها نيرودا، فإنه يجرب أيضاً، قفزات تقنية لا وجود لها بين كتّاب هذه المرحلة (تركيب بحور شعرية، توليف أوزان بيضاء مع أوزان مرسلة، ثقة بالتداعي العفوي التلقائي، قيود صوتية)، ولكنه يقع، بعد سنوات، تحت بساطة التركيب الظاهرية، في كتبه الكبرى.

ومع ذلك، فإن الصمت النسبي الذي أحاط، في ذلك الحين، بـ «**محاولة الإنسان**»، لا يمكن أن يكون قد أثقل كثيراً على كاهليه، لا سيما وأن لديه ـ وهو لم يكد يتم سنواته العشرين ـ كتابين ناجحين، صيتهما في تعاظم. أولهما «**غسقيات**»، وكان قد بدأه في تيموكو سنة ١٩٢٠، وأنهاه في سنتياغو ١٩٢٣، العام الذي صدرت فيه طبعته الأساسية. ومن بين الخمسين قصيدة التي تؤلف الديوان، هناك عدد من القصائد التي أنهكت أنطولوجيات الشعر الناطق بالإسبانية، لكثرة ما أعيد نشرها فيها، طوال نصف القرن الأخير.

ولا بد أنه من الصعب الحديث هكذا، عن أول كتاب لمؤلف، ولا سيما إذا ما أخذنا بعين الاعتبار، أن مؤلفه نظم معظم قصائده، وهو بين السادسة عشرة والثامنة عشرة من عمره. وما هو جدير بالذكر، إذا اتفقنا على أن عاطفة الكتاب هي عاطفة مراهقة ـ مع أنها ليست كذلك دائماً ـ فإن براعته الشكلية وغنائيته العميقة، لا تبدوان منتميتين مطلقاً لهذه المرحلة الحياتية المزعزعة. فقصائد مثل

Twitter: @ketab_n

«السمراء، والمقبّلة» أو «القلعة الملعونة» (مع ملاحظة تمثله الواضح لروبين داريو)، أو «فارويل» («من أعماقك، وجاثياً/ مثل طفل حزين، مثلي، يتطلع إلينا».)، أو «حب» أو «أيتها المرأة، لم تعطيني شيئاً»، أو «الشعب»، قد استنسخها آلاف وآلاف المرات، مراهقون يجهلون، دون شك، أن كاتبها هو طفل أخر، رائع وعجيب.

لكن قمة هذه المرحلة ـ كعمل لا جدال في براعته بين جنسه ـ تأتي لنيرودا عام ١٩٢٤، مع نشره «**عشرون قصيدة حب وأغنية يائسة**». إن جميع النظريات التي يمكننا تصورها ـ بدءاً من الاتهامات بالسرقة، وحتى أكثر القصص غرابة، حول اللُقية العرضية ـ انهالت على هذا الكتاب (وهو دون شك أوفر الكتب حظاً، في ما يتعلق بعلاقته بالجمهور، بين جميع الكتب التي كُتبت بلغتنا الإسبانية)، للانتقاص أو الغمز من نجاحه المذهل: ففي عام ١٩٦١، تجاوز عدد نسخ الكتاب المليون نسخة ـ وهذا دون اعتبار طبعات القرصنة الكثيرة ـ باللغة الإسبانية وحدها. وما زالت تصدر من الكتاب، الطبعة تلو الأخرى بجميع لغات الأرض تقريباً.

من المستحيل التوصل إلى مفاتيح لغز هذه الظاهرة التي لا مثيل لها في التوزيع، لكن ما هو مؤكد أن الدسائس التي حيكت حوله، قد انزاحت خلال نصف قرن من الحماسة العالمية. وهو برهان يتحطم حياله كل جدال.

Twitter: @ketab_n

أما بالنسبة لذوقي الخاص، فإن هذا الكتاب، بعيد عن أن يكون أفضل مؤلفات نيرودا. ولكنني لا أستطيع العودة لتصفحه دون أن أعترف باتقانه الذي لم يُسبق إليه، على صعيد الشكل، فضلاً عما فيه من بساطة وشفافية تجعلانه شبيهاً بمسيل مائي: إنه واحد من هذه الكتب الشعرية النادرة التي لا يتعثر فيها الوزن والإيقاع، ولو مرة واحدة.

ومع أن هذا الكتاب لم يكن أفضل كتب نيرودا، إلا أنه، على أية حال، المفتاح الذي فتح أمامه فعالية الأوزان الشعبية، والأوتار التي تصدح في مسامع العالم، منذ الأزمنة السحيقة، عندما كان الشعر شفهياً، وكان لا بد للكلمة، كيلا تندثر، من موسيقى تمنحها الحياة. هذا النهج سيصبح مفتاحاً مميزاً للشعر النيرودي، اعتباراً من «**النشيد الشامل**». ولكنه سيحتاج لآلام طويلة، ولهاويات «**إقامة في الأرض**» حتى يتدفق دون عوائق، كنهر، كريح، أو كنمو شجرة: كظاهرة جيولوجية متصالحة، في آخر المطاف، مع الطبيعة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

إقامة في الأرض

(١٩٢٥ ـ ١٩٣٥)

«ويحدث أن أتعب أحياناً

من كوني بشراً».

بدأت قصائد «**إقامة في الأرض**»، في سنتياغو، حوالي عام ١٩٣٥، ونظمت في غالبيتها، خلال سنوات الشاعر القنصلية في الشرق، ورأت النور في طبعة فاخرة محدودة، من مئة نسخة، عام ١٩٣٣.

كانت المجموعة مؤلفة من ثمان وعشرين قصيدة، وخمسة نصوص نثرية، ثم توسعت بإضافة جزء ثانٍ إليها. وطُبع الكتاب في طبعته العامة والنهائية، في مدريد ١٩٣٥: إنهما جزءان صغيران، لا يتجاوز مجموع قصائدهما الخمسين إلا قليلاً. إن هذا العدد (خمسون قصيدة في عشر سنوات) يبدو ضئيلاً إذا ما قورن بغزارة إنتاج نيرودا، قبل وبعد هذه المرحلة من شعره، المتمثلة في **إقامة**. وليس هذا مصادفة على كل حال، فبعد دفق اللهو والشعر في

Twitter: @ketab_n

المراهقة، وقبل حرب إسبانيا، التي ستترك آثارها، إلى الأبد، في نتاجه وطريقة حياته، كانت تلك السنوات العشر الحاسمة في حياة الشاعر، بين العشرين والثلاثين من عمره. وربما هي المرحلة الأكثر غنى في حياته، من الناحية الوجدانية.

فبعد أن قرر تكريس نفسه، جسداً وروحاً، للأدب، نصب نيرودا شباكه ـ بمعايير متقنة ـ باتجاه الحصول على منصب دبلوماسي. وقد أعطى انتظاره الطويل المسلي ـ كما يروي لنا في مذكراته ـ نتائجه في أواسط العام ١٩٢٧، عندما حصل أخيراً على تعيينه قنصلاً فخرياً في رانغون (بيرمانيا)، التي توجه إليها في شهر حزيران (يونيو) من العام نفسه، ماراً لأول مرة في حياته، بمدريد وباريس، وهما المدينتان اللتان سيكون لهما شأن كبير في مستقبله.

خلال السنوات الخمس التي أمضاها في آسيا، وصل مزاج الشاعر المتقلب، والسوداوية التي سيطرت على مؤلفات شبابه، إلى مداهما الأقصى: سيجرب الحب، الكآبة، الملل، العزلة؛ وستتواتر في شعره بكثرة ـ في انعكاس شفاف لحياته، كالعادة ـ مناطق بذاءات كان تصورها مستحيلاً، إذا ما قورنت بنتاجه السابق، وهو لن يعود لطرقها في المستقبل مطلقاً. ومن خلال تجربته الحياتية، يظهر «إقامة في الأرض»، هذا الكتاب الفريد في المسيرة النيرودية، والذي لا يمكن فهمه، دون التعرف على المشهد الحياتي الذي رافق مخاضه.

بدأ بكتابته في بيرمانيا، وتنقل معه خلال خمس سنوات، عبر

Twitter: @ketab_n

سيلان، والهند، وجاوة، وسنغافورة. وتضمَّن الحب العنيف الساطع الذي ربطه بخوسيه بليس، وزواجه تحت وطأة الملل والوحدة، من امرأة لم يحبها أبداً، ومغامراته الجنسية العابرة مع فتيات كولومبو، ومراسلاته الكئيبة مع الروائي الأرجنتيني هيكتور باندي، وحنينه إلى تشيلي، وحاجته المادية، ويأسه من نشر المادة التي نظمها.

خوسيه بليس ـ وهي امرأة بيرمانية جميلة وعاطفية، غيورة مثل زناد سلاح حساس ـ برزت في حياة نيرودا، كتجسيد مادي لكل شعره في الحب. أغرقته، خنقته، سهدت أحلامه، وهي تحمل في يدها سكيناً حادة، وتقف مستعدة لقتله في أية لحظة، أمام أي ارتياب يراودها بفقدانه. وعندما نُقل الشاعر من رانغون إلى سيلان، لحقت به، وأقامت في البيت المقابل لبيته، حيث راحت تراقب من يزورونه، وتعتدي على النساء اللواتي يقربن منه. وأخيراً، تطردها الشرطة الاستعمارية من الجزيرة، لسوء سلوكها المتواصل. لقد ارتاح نيرودا منها بطريقة ما، ولكنه تأثر في أعماقه، بتلك العاطفة العاصفة. ولم يتمكن من نسيان حبيبته، ولا الوداع المؤثر بينهما:

كما في طقس من الطقوس الدينية، راحت تقبل ذراعيّ، بدلتي، ثم نزلت فجأة إلى حذائي، دون أن أستطيع منع ذلك. وعندما نهضت من جديد، كان وجهها مغبراً وملطخاً بطلاء حذائي الأبيض. لم

Twitter: @ketab_n

أستطع أن أطلب منها أن تتخلى عن الرحلة، وأن تغادر معي الباخرة التي ستحملها بعيداً عني إلى الأبد. لقد منعني العقل من ذلك، ولكن قلبي أصيب هناك بجرح لم يلتئم بعد. ذلك الألم المضطرب، وتلك الدموع الرهيبة المنسكبة على الوجه المعفر بالبياض، ما زالا راسخين في ذاكرتي.

وسيكرس لها قصيدتين في **إقامة** (القصيدة التي تحمل اسمها، والقصيدة الشهيرة الأخرى بعنوان «تانغو الأرمل»)، ثم قصيدتين أخريين ـ بعد أربعين سنة ـ في كتاب «ذكريات إيسلا نيغرا»، تعتبر إحداهما أجمل حسرة حب في هذا الكتاب المترع بالحب.

ماذا جرى للغاضبة؟

كانت حرباً

تحرق المدينة المقدسة

التي أغرقتها،

لم يخرج التهديد المكتوب

أو الشباب الأثيري، مرة أخرى،

بحثاً عني، لمطاردتي

كما كان يخرج منذ عدة أيام، هناك بعيداً.

كما كان يخرج منذ عدة ساعات،

Twitter: @ketab_n

الساعات التي كوّنت، ساعة بعد ساعة،

الزمن والنسيان

الذي ربما صار اسمه موتاً،

والموت: كلمة مشؤومة، أرض سوداء

فيها ترقد خوسيه بليس

نَزِقة

ومضيفة إلى سنواتي النائية

تجعيدة بعد تجعيدة، حلّت في وجهها،

لأنها عبر العالم كانت تنتظرني،

ولم أصل إليها أبداً،

ربما، بسبب آلامي،

ولكن، ربما في الكأس الفارغ،

في صالة الطعام الميتة

كانت تستهلك صمتي،

أو خطواتي البعيدة،

ربما رأتني إلى أن ماتت

كما لو كنتُ وراء الماء،

كما لو كنتُ أسبح مثل شيء بلّوريّ.

Twitter: @ketab_n

وبحركاتها المضطربة،

لا تقدر على الإمساك بي

فتفقدني

كل يوم، في البحيرة الشاحبة

حيث بقيت نظراتها معلقة.

إلى أن أغمضت عينيها

- متى؟

إلى أن طواها الزمن والموت.

- متى؟

إلى أن لم تعد تلك التي أحبتني بغضب،

بدم، بثأر،

بياسمين،

لم تعد قادرة على متابعة الكلام وحدها،

وهي ساهمة في بحيرة غيابي.

ربما هي الآن

تستريح أو لا تستريح

في مقبرة رانغون الكبرى.

Twitter: @ketab_n

أو ربما على ضفة

نهر «يراوادي»، أحرقوا جسدها،

طوال ظهيرة كاملة، بينما النهر يهمس

ما قلته لها باكياً.

اختفت خوسيه بليس من حياته، وأحس نيرودا بأنه يغرق في العزلة المدارية المنوِّمة. لا ترافقه سوى النِمْسة ـ «كبريا» التي سيفقدها بعد وقت قصير ـ، ومرافِقِه الأدميِّ الوحيد، الصبي «برامبي» الذي «كان يبدو كأنه نسي اللغة». وكان قليل الميل نحو الإنكليز الذين «يلبسون السموكنغ كل ليلة»، وأقل من ميله نحو هؤلاء، كان ميله نحو المُثرِين الهنود، فاختار نيرودا الوحدة في حي «ويلواذا» البعيد، حيث استأجر بيتاً (بنغالو) إلى جانب البحر. وسيتأخر طويلاً «أياماً وسنوات»، ليقيم اتصالاً مع كائنات تلك المناطق. وإلى هذه الفترة، ترجع رسائله الأولى إلى صديقه بالمراسلة هيكتور ياندي، وهي الرسائل التي نشرتها لأول مرة مرغريتا أغييري، وسأقتطف منها بعض المقاطع التي تبدو لي مهمة، من أجل صورة شعاعية للفترة الزمنية التي كتب بها «**إقامة في الأرض**».

١٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٨.

... الآن، ونحن نستعد لهول المستعمرات المهملة

Twitter: @ketab_n

والمنسية، فلنتناول أول «ويسكي أند صوردا» على شرفك أيها الصديق الطيب ياندي. الشراب بوحشية، الحر، الحميات، المرضى، المخمورون في جميع الأنحاء (...) أما أنا فالنعاس، والإجهاد، والقيظ يقرضني. لن أكتب أية رسائل، ولا أية أشعار أخرى، ففي قلبي دخان (...) في الرسائل التي تبعث بها إليّ، ثمة فوران كبير، حياة كثيرة، ولكن القمم قليلة (...) أنا لا أجد في حياتي أو في ما حولي، أموراً نقية بالكامل، وقادرة على اجتذابي. وبينما أنا أحاول الانتقاء، أشعر بأن الوقت يمضي. يا للرعب!

١١ أيار (مايو) ١٩٢٨.

... أريد الخروج الآن من حالة روحية بائسة حقاً (...) في ما كنتُ لأتقدم بحياتي، كنتُ أجعل عملي الأدبي أصعب فأصعب، فرحت أرفض وأدفن أشياء كانت محببة إليّ كثيراً من قبل، إلى أن صرت أمضي وقتي في اهتمامات بائسة، وأفكار ضحلة، متأثراً بهذه المخارج الفجائية، ومستبدلاً مضمونها ببطء شديد (...) إن طاقة شعرية عنيفة ما زالت في داخلي، وهي تقودني شيئاً فشيئاً نحو طريق صعب

Twitter: @ketab_n

المنال، بحيث إني أنجز أعمالي، في أغلب الأحيان، بعد معاناة شديدة، مدفوعاً بحاجتي إلى احتلال موقع بعيد، بعض الشيء، بقواي التي هي بكل تأكيد، قوى ضعيفة جداً.

٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٢٨)

... ولكن، حقاً، ألا تجد نفسك محاطاً بالدمار، بالموت، بأشياء بائدة؟ ألا تشعر بأنك تصطدم في عملك، بصعوبات ومستحيلات؟ أليس كذلك؟ حسن. لقد قررت أن أصنع نفسي من هذا الخطر، وأن أستخلص النفع من هذا النضال، وأن أستخدم هذا الضعف (...) لقد أنهيت تقريباً، ديوان أشعار بعنوان: **إقامة في الأرض**. وسترى كيف أستطيع أن أعزل أسلوبي، وأجعله يتذبذب بانتظام بين المخاطر. وسترى بأي مضمون متين منسق، وبأي إصرار، أكوّن هذه القوة المتجانسة.

٢٤ نيسان (أبريل) ١٩٢٩.

... لقد ظننت أني عاجز عن التعبير القادر على التواصل، وأحطت نفسي بجو من السرية. إنني أقاسي

Twitter: @ketab_n

كمداً حقيقياً لأقول شيئاً، حتى ولو كان ذلك لنفسي. يبدو لي كأنه لا وجود لكلمة واحدة تمثلني. وأنا أقاسي الكثير من هذا الأمر. أجد جميع عباراتي مبتذلة، منفصلة عن كياني (... إنني وحيد؛ كل عشر دقائق، يأتي خادمي رانتاي.. يأتي كل عشر دقائق، ليملأ كأسي. أشعر بأنني قلق، منفي، محتضر (...). ياندي: لا أحد أكثر وحدة مني. إنني ألتقط كلاباً ضالة من الشوارع، لتعيش معي. ولكن هذه الحيوانات الملعونة لا تلبث أن تتخلى عني، بعد وقت قصير (...) إن «**إقامة في الأرض**» هو كومة كبيرة من أبيات شعر ذات رتابة عظيمة. إنها أشعار طقوسية تقريباً، فيها سحر خفي، ومعاناة كما كان يفعل الشعراء القدماء. إنها شديدة التناسق، كشيء واحد مكرور، كتمرين أبدي على شيء بلا نجاح.

٥ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٩.

... إننا، معشر القناصل الذين من مرتبتي ـ قناصل الشرف ـ، نحصل على راتب بائس.. أدنى راتب لموظفي الوزارة. وقلة النقود جعلتني أعاني البؤس حتى الآن. وحتى هذه اللحظة، أعيش مليئاً بتناقضات

Twitter: @ketab_n

غير نزيهة. لدي ١٦٦ دولاراً أمريكياً في الشهر. وهذا الراتب يحصل عليه، هنا، عامل من الدرجة الثالثة، في دكان عطار. والأسوأ من ذلك، أن استلام هذا الراتب يعتمد على المداخيل التي تتراكم في القنصلية. هذا يعني أنه إذا لم يكن هناك صادرات إلى تشيلي، في أحد الشهور، فلن يكون هنالك راتب لي. إن هذا كله، في الحقيقة، مؤلم ومهين. ففي برمانيا كنت أقضي أحياناً خمسة شهور بلا مرتب. وهذا يعني بلا أي شيء. وما هو أسوأ، أن جميع النفقات الضرورية، كالطاولة، والمفروشات، والتصاريح، وإيجار المكتب، عليّ أن أدفعها أنا (...) اعذرني على هذه التفاصيل المشؤومة التي تشكل الحقيقة والقلق اليومي. ربما، لو كان لي راتب كامل وثابت ـ أي لو أنه كانت لدي ضمانات باستلامه في نهاية كل شهر ـ، لما كنت أهتم بقضاء حياتي في أي مكان، سواء أكان بارداً أم حاراً. أجل، فأنا الذي أُنَظِّر دائماً لحياة اللامسؤولية والحركة، سواء بالنسبة لحياتي أو لحياة الآخرين، اشعر الآن برغبة كئيبة في الاستقرار، في الثبات على شيء، في الحياة أو الموت بهدوء. أريد الزواج أيضاً، وبسرعة، غداً بالذات، وأن أحيا

Twitter: @ketab_n

في مدينة كبرى. إنها رغباتي الملحة. وربما لن أستطيع تحقيقها أبداً.

٢٤ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٩.

... كنتُ أفكر في ديوان قصائدي الجديدة. هل هو ممكن ما قلته لي من أنهم، في بوينس آيرس، يدفعون شيئاً ما مقابل نشره؟ ربما أنك تبالغ في هذا. فهو يبدو لي غريباً (...) لقد استغرقت خمس سنوات في كتابة هذه الأشعار. وكما ترى، فهي قصائد قليلة جداً.. تسع عشرة قصيدة فقط. ومع ذلك، فإنه يبدو لي أن كل عبارة من عباراتي، مشربة بذاتي، بل هي تتقطّر من ذاتي.

٢١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٩.

... على الشاعر ألا يكرر نفسه، فهو منتدب لأمر كبير، ألا وهو النفاذ إلى الحياة وجعلها نبويّة. على الشاعر أن يكون خرافة، كائناً أسطورياً (...) فما هو الهدف من الشعر، إذا لم يكن عزاء وباعثاً للأحلام؟ (...) وهذا ما أريد تحقيقه: قصيدة شاعرية. فمن فضولي العلمي، ومن إعجابي بالسيارات، ومن ميلي

Twitter: @ketab_n

نحو هذه الطبيعة الغريبة، لا يبقى سوى الشيء القليل عندما أجلس، ليلاً، لأكتب وحيداً، أمام ورقة. عندئذ لا اشعر إلا بوجودي، ومحني، وسعاداتي، وعواطفي الخاصة.

٢٧ شباط (فبراير) ١٩٣٠.

... لا أشعر، حالياً، بشيء أستطيع كتابته؛ فكل الأشياء تبدو لي ليست بلا معنى، وإنما طافحة بالمعاني. أجل، أشعر بأن جميع الأشياء قد وجدت التعبير عن ذاتها بذاتها، وبأنني لست جزءاً منها، ولا قدرة لي على النفاذ إلى أعماقها.

وسط هذه الفاقة، ومن هذه الشاعرية ـ وهي لا علاقة لها بالشاعرية المدروسة التي سيتحدث عنها بعد عشرين سنة، في رسالته إلى كاردونا بينيّا ـ، شيد نيرودا الهندسة «الرتيبة» **لإقامته** التي فيها «سحر خفي ومعاناة، مثلما كان يفعل الشعراء القدماء»، وفيها كذلك شهوانية، واسترخاء، وتأمل، وخدر.

خلال الفترة الأخيرة من وجوده في سيلان، يتمكن الشاعر من تحطيم حصار العزلة. ومع أنه لا يقيم علاقات عميقة، إلا أنه يستسلم لترف صحي ومعقول.

Twitter: @ketab_n

الحقيقة هي أن الوحدة التي كنت أشعر بها في كولومبو، لم تكن ثقيلة وحسب، وإنما كانت نوعاً من السبات. كان لي عدد قليل جداً من الأصدقاء، في الشارع الذي أسكن فيه. كانت تمر في سريري، وهو كأسرة المعسكرات، صديقات من مختلف الألوان، دون أن يخلفن فيه أثراً سوى البريق الجسدي. لقد كان جسدي محرقة متوحدة. كانت صديقتي «باستي» تجيء على الدوام، مع بعض صديقاتها: صبايا سمراوات ومذهبات، يجري في عروقهن دم بويري، ودم إنكليزي، ومما قسم الله. كنّ جميعهن يضطجعن معي، بصورة رياضية وغير مصلحية.

وفي ما هو في تلك الحالة المعنوية، فوجئ في أواسط عام ١٩٣٠، بتعيينه ـ وبالتالي انتقاله ـ قنصلاً لتشيلي في سنغافورة وباتافيا (جاوة). وفي هذه المدينة الأخيرة، أنهى ديوانه «**إقامة في الأرض**» (الذي سيصبح في طبعته النهائية «**الإقامة الأولى**»)، ويتزوج من ماريا أنطونيا هاغينار، «إنها من أصل كريوليّ، ومن الأفضل القول إنها هولندية، مع بضع قطرات من دم ملاوي. إنني جد معجب بها». إنه زواج بقليل من الحب، أو بلا حب، تحقق كمبادرة، حيال الضجر والوحدة. ومع ذلك، فإن العلاقة مع «ماروكا» ـ كما كان الشاعر يسميها ـ تنفرد ببعض الخصائص: فهي

Twitter: @ketab_n

الوحيدة بين زوجاته، التي ستمنحه طفلاً (فقد أنجبت له ابنته مالفا مارينا؛ الطفلة العليلة منذ ولادتها، والتي ماتت في ما بعد، في أوروبا، قبل أن تتم السنة الثامنة من عمرها). وهي الزوجة الوحيدة أيضاً التي سيتجاهلها تماماً، وبصورة منهجية، في أعماله ومذكراته. وتؤكد مرغريتا أغييري أنه لم يكرس لها أية قصيدة على الإطلاق، حتى ولا في الفترة التي عاشاها معاً. ولكن ما هو أكثر إثارة للاستغراب أنه لم يتعرض لمجرد ذكرها في فصول السير الذاتية العديدة التي كتبها (ابتداء بـ «هذا أنا» في **النشيد الشامل**، حتى **ذكريات إيسلا نيغرا**) حيث توجد استحضارات رقيقة لغرامياته في الطفولة والمراهقة. إن هذا التجاهل، بل هذا الازدراء، يبلغ أوجه في «**أعترف بأني قد عشت**»، حيث يكرس لها سطرين مقتضبين، قبل أن يعطي الكلام لمرغريتا أغييري. وحتى هذا الاستحضار المقتضب، يبدو كأن كاتبه شخص محايد. أما في رسائله إلى هيكتور ياندي ـ وهي رسائل حميمة، كما رأينا في مناسبة سابقة ـ فقد بقي لنا القليل من الوصف العاطفي للأيام الأولى التي أمضاها الزوجان. ولندع الرسائل نفسها تتكلم:

> زوجتي هولندية. ونحن نعيش معاً بكل جوارحنا، وبكامل السعادة، في بيت أصغر من كُشْتبان. أنا أقرأ، وهي تخيط. إن الحياة القنصلية، والبروتوكول، والمآدب، والسموكنغ، وأوشحة التشريفات، والبدلات الرسمية، وحفلات الرقص، والكوكتيل

Twitter: @ketab_n

التي تأخذ وقتنا، ما هي إلا جحيم. البيت هو الملجأ، ولكن القراصنة يحيطون بنا. نكسر الركود، ونهرب بالسيارة، حاملين معنا «ترمس» كونياك وكتباً، وننطلق إلى الجبال أو الشاطئ. نستلقي على الرمال، وعيوننا ترمق الجزيرة السوداء، سومطرة، وبركان «كراكاتو» الذي يندفع من قاع البحر. نأكل الشطائر، ثم نعود. لا أكتب شيئاً. أقرأ بروست كاملاً للمرة الرابعة. إنه يثير إعجابي أكثر من السابق. لقد اكتشفت رساماً وسريالياً، ونحن نخرج معه لتناول الطعام في المطاعم الصينية، ونحتسي البيرة معاً. حتى أكثر الأمور غرابة وأشدها حميمية، تتحول إلى روتين. فكل يوم هو مثل غيره، في هذه البلاد.

على كل حال، عاد نيرودا إلى تشيلي عام ١٩٣٢، وبرفقته ماروكا، بعد غياب دام خمس سنوات في مدارات الشرق. إن وضعه الوظيفي ـ مثلما يُفهم من الفقرة المذكورة أعلاه ـ قد تحسن بصورة ملموسة: فبعد أن أنهى «فترة الخطوبة» في السلك الدبلوماسي، خولته مهمته الأخيرة في سنغافورة أن ينتقل إلى حياة أقل اضطراباً مما مرّ به حتى ذلك الحين. وخلال السنة التي قضاها في سنتياغو، بعد عودته إليها، توالت طبعات كتبه؛ فقد صحح ورتب ديوان «**عشرون قصيدة حب وأغنية يائسة**» بصورة نهائية، وصدر في طبعتين في كل من تشيلي وبوينس آيرس. وقرر نشر

Twitter: @ketab_n

«**رامي المقلاع المتحمس**» ـ بعد عشر سنوات تقريباً من كتابته ـ، ثم صدرت الطبعة الأولية من «**إقامة في الأرض**». وبهذا المتاع ينتقل إلى بوينس آيرس، ريثما يتم تعيينه قنصلاً هناك، في آب (أغسطس) ١٩٣٣. ويبقى في مهمته، في العاصمة الأرجنتينية، أقل من سنة. ولكن حياته تأخذ بالتحول هناك، كمقدمة للفترة العظيمة والحاسمة التي سيحياها في إسبانيا. فمثقفو بوينس آيرس يستقبلونه بالود والتقدير. ويقتحم نيرودا للمرة الأولى، عالم النجاح الذي لن يفارقه بعدها. وتبتعد الأيام البوهيمية التي عاشها في سنتياغو، وكذلك أيام الكآبة المدارية، ويتأكد الشاعر من وجهة قدره ووحدته. ويصبح أوليفيريو خيروندو، وكونرادو نالي روسلو، ونورا لانجي، وبابلو روخاس باث، وريكاردو موليناري، وراؤول غونثالث تونيون، وآمبارو موم، هم من يشكلون دائرة أصدقائه المقربين، فيحيا حياة بوهيمية مزينة بأناس موهوبين لا يخلون من قمة عبقرية ـ كما هي حال خيروندو ـ. وفي اليوم الثالث عشر من تشرين الأول (أكتوبر) يتعرف في بيت روخاس باث على فيدريكو غارسيا لوركا الذي كان يقوم آنذاك بجولة مظفرة في أمريكا. وبعد تعيينه قنصلاً في برشلونة، يبحر نيرودا أخيراً، إلى إسبانيا، في الخامس من أيار (مايو) ١٩٣٤، برفقة ماروكا، وهي حامل في شهرها الرابع. وخلال السنتين التاليتين لعودته من الشرق، والسنة الأولى التي أمضاها في إسبانيا، يكتب قصائد «**الإقامة الثانية**»، وهو

Twitter: @ketab_n

الديوان الذي ظهرت طبعته الكاملة في مدريد، في شهر أيلول (سبتمبر) ١٩٣٥.

الحرب الأهلية الإسبانية تلوح في الأفق، ومرحلة زخمة لا تتكرر، تكاد تتبلور، لتتحكم بشاعرية نيرودا.

***

ومع الصفحة الأخيرة من «**الإقامة الثانية**» تنتهي مرحلة لن تتكرر من الشعر النيرودي. ذلك أن «**الإقامة الثالثة**» (١٩٣٥ ـ ١٩٤٥)، كما سنرى، هو كتاب خالٍ من الوحدة. وكثمرة باهرة لنضوج هذه الشاعرية الخلاقة الجديدة، سيظهر بعد خمس سنوات «**النشيد الشامل**».

ولكن الانتقال من مفهوم محدد للعالم ولحياته بالذات، إلى مفهوم آخر، لا بد أنه بالنسبة إلى نيرودا، كان شيئاً أكثر من مجرد خمسة عشر عاماً من حياته؛ إنها رحلات، نضالات، محاضرات حاشدة، علاقات غرامية، نضال في السرية، انعكاسات على الورق، للنشيد في تاريخ العالم، للشاعرِ كخازن لذاكرة البشر.

و ـ كضوء مركزي وحاسم ـ استقرت إسبانيا في قلبه.

Twitter: @ketab_n

إسبانيا في القلب

(١٩٣٤ ـ ١٩٣٩)

«ستسألون: لماذا لا تحدثنا أشعاره

عن حلم الأوراق،

عن البراكين العظيمة

في موطن ميلاده؟

تعالوا انظروا الدم في الشوارع».

في كتابها «حيوات بابلو نيرودا»، تروي مرغريتا أغييري عن اقتحام الشاعر لشبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا) هكذا: يقول رافائيل ألبيرتي إنه بعد عدة سنوات من المراسلة مع بابلو نيرودا، وفي يوم طيب من ايام حزيران (يونيو) ١٩٣٤ ـ «في وقت لم أكن أنتظره فيه، ولم أكن أعرف شيئاً عنه منذ زمن»، صعد نيرودا راكضاً أدراج بيته، وقال له:

Twitter: @ketab_n

ـ أنا بابلو نيرودا. لقد وصلت للتو، وحضرت لمصافحتك ـ ثم يتابع قائلاً: ـ إن زوجتي تحت، لا تفزع، ولكنها عملاقة تقريباً.

هكذا وصل نيرودا إلى إسبانيا، صاعداً بخطوات واسعة.. سعيداً ومتدفقاً.

إن الشاعر المبعوث قنصلاً إلى برشلونة، أتى مصمماً على الإقامة في مدريد، حتى إنه استأجر بيتاً في حي أرغوييّس، بعد أقل من شهر من وصوله إلى إسبانيا. وفي مدريد، ستولد ابنته يوم ١٤ تشرين الأول (أكتوبر) من ذلك العام. وفي جامعة المدينة سيقدمه غارسيا لوركا رسمياً في أوائل شهر كانون الأول (ديسمبر). وبعد ذلك بشهرين، يتمكن من الحصول على أمر بنقله، كقنصل، إلى العاصمة الإسبانية، بدلاً من برشلونة، محققاً بذلك حلمه.

كانت حياته الزوجية مع ماروكا هاغينار، تمضي من سيئ إلى أسوأ، في عام ١٩٣٤، وهو عام حافل بعلاقات الشاعر الغرامية. وقد كرس لعلاقتين منها، كتابه «**الغضبات والمشقات**» الذي كتبه في ذلك الحين. غير أنه لم ينشره إلا بعد مرور خمس سنوات، عند عودته إلى تشيلي. وفي حفل أقيم في بيت مورلا لينيتش، تعرف على ديليا دل كاريّل ـ التي ستصبح زوجته، خلال الحقبة التالية. وكانت واحداً من حبين كبيرين في حياته ـ فتهدأ عاصفته

Twitter: @ketab_n

الغرامية. وفي الوقت نفسه، كانت شعبيته في تصاعد، ولا سيما منذ التكريم الذي قدمه إليه شعراء إسبانيا، بعد أقل من سنة على قدومه. ففي نيسان (أبريل) ١٩٣٥، نشر ديوانه «**إقامة في الأرض**»، مع مقدمة لاهبة وقع عليها كل من: ألبيرتي، ألكسندري، ثيرنودا، خيراردو دييغو، ليون فيليبه، غارسيا لوركا، خورخي غيين، بيدرو ساليناس، وميغيل هيرناندث، بالإضافة إلى آخرين. ومما قالوه في تلك المقدمة: **لقد بعثت تشيلي إلى إسبانيا، بالشاعر الكبير بابلو نيرودا الذي ينتج بقدرته الخلاقة الجلية، وبتملكه لزمام قدره الشعري، أعمالاً تعتبر مثلاً يحتذى، من أجل شرف اللغة القشتالية.**

بعد خمس سنوات من رسالته إلى ياندي ـ التي طالب فيها بمكان هادئ، وزواج برجوازي، وراتب ثابت، مقنعاً نفسه باستحالة أن يهتم أحد اهتماماً حقيقياً بنشر أشعاره ـ صار نيرودا علماً، وموضع تقدير، ومؤثراً في الحياة الأدبية؛ لدرجة أن أفضل أصوات إسبانيا الشعرية كلفته برئاسة تحرير مجلة «**الحصان الأخضر للشعر**». كما احتل ديوانه «**إقامة في الأرض**» مكانة مرموقة، وسط إجماع من الثناء عليه. بل إن القدر حالفه كذلك ليجعل الشاعر ميغيل هيرناندث في عداد تلاميذه ومريديه، وهو أعمق وأسطع الشعراء الإسبان في القرن العشرين؛ مما دفع مرافقته وكاتبة سيرته إلى القول: **إنه النصر الأدبي العظيم. وروبين داريو فقط، هو الذي أحرز صدى كهذا في إسبانيا.** لقد كانت مدريد احتفالاً، وكان الشاعر يحياه ملء يديه.

Twitter: @ketab_n

أنا وفدريكو وألبيرتي الذي كان يسكن في بيت قريب من بيتي، في ملحق يطل على دغل، البيت الذي كان يسمى «الدغل الضائع»، ومعنا النحات ألبيرتو، وهو خباز من طليطلة، كان إذ ذاك معلماً للنحت التجريدي، وألتولاغييري، وبيرغامين، والشاعر العظيم لويس ثيرنودا، وفيثنتي ألكسندري، وهو شاعر ذو مدى غير محدود، والمهندس المعماري لويس لاكاسا، نلتقي يومياً في جماعة واحدة، أو في عدة جماعات، في البيوت والمقاهي. كنا نمضي من شارع لاكاستيانا أو من مشرب البيرة، في شارع البريد، حتى نصل إلى بيتي في أرغوييّس. كنا نهبط من الطابق الثاني لإحدى الحافلات الكبيرة التي كان مواطني العظيم كوتابوس يدعوها «سيارة الإطفاء»، ننزل في جماعات صاخبة للأكل والشرب والغناء (...) في مدريد تلك! كنتُ أمضي مع ماروخا مايو، الرسامة الجليقية، عبر الأحياء السفلى، بحثاً عن المحلات التي تبيع الحصر والحلفاء، بحثاً عن أزقة صانعي البراميل والحبال، وكل مواد إسبانيا الصلبة، المواد التي تفتل قلبها وتجدله.

وصل نجم نيرودا في إسبانيا، إلى أوجه، في أواسط عام

Twitter: @ketab_n

١٩٣٦. ومنذ ذلك التاريخ، اتخذت الأمور اتجاهاً آخر، مختلفاً بالنسبة للجميع.

بقي العدد السادس من مجلة «**الحصان الأخضر للشعر**»، في شارع بيرياتو، دون ترتيب ولا تخييط. كان عدداً مكرساً للشاعر خوليو هيريرا آي ريسيغ ـ لوتريامونت الثاني لمونتيفيديو ـ والنصوص التي كتبها الشعراء الإسبان تكريماً له، بقيت راقدة هناك، بجمالها، دون حَبَل ولا ولادة. كان من المفروض، أن تظهر المجلة في اليوم التاسع عشر من تموز (يوليو) ١٩٣٦، لكن الشارع امتلأ بالبارود، في ذلك اليوم؛ فقد تمرد جنرال مجهول، يدعى فرانثيسكو فرانكو، ضد الجمهورية، في محميته بافريقيا.

قبل ثلاثة أيام من ذلك، كان فيدريكو غارسيا لوركا، قد سافر إلى مسقط رأسه، إلى غرناطة، في الرحلة التي ستكون رحلته الأخيرة. ويتذكر نيرودا بأنهما اتفقا على حضور استعراض يؤديه مسخان غريبان ملقبان بـ «ساكن الكهوف المقنّع» و«خنّاق الحبشة».

تخلف فيدريكو عن الموعد. كان قد راح ليلقى حتفه. لم نرَ بعضنا بعدها أبداً. موعده كان مع خنّاقين آخرين. وهكذا، فإن حرب إسبانيا التي غيّرت مسار شعري، بدأت بالنسبة لي، بمقتل شاعر.

Twitter: @ketab_n

إن اغتيال فيدريكو، ثم اعتقال ميغيل هيرنانديث وموته في المعتقل ـ وهما الشاعران اللذان جمعته بهما أواصر مودة شديدة ـ يعتبران حدثين من أكبر الأحداث المؤلمة في حياة نيرودا. وهو لن يتوقف عن ذكرهما والتحدث عن صداقته لهما، عبر جميع الكتب التي أصدرها منذ ذلك الحين. بيد أنه يتوجب علينا ألا نبحث في هذه المؤثرات والأسباب الشخصية، عن التغيير العملاق في الشعر النيرودي؛ فمنذ عام ١٩٣٤ ـ إبان موجة القمع الوحشية، ضد عمال المناجم في أستورياس ـ كان قد بدأ يميل بمشاعره، نحو القضايا الشعبية. وسرعان ما بدأ يتحدث في **حصانه الأخضر**، عن «شعر بلا نقاء». وفي عام ١٩٣٦، هاجمت عصابات فاشية، ودمرت بيت رافائيل ألبيرتي الذي كان يقوم بجولة في أمريكا ـ مبعوثاً من جمعية الإسعاف الأحمر ـ لطلب المساعدات، قبل حلول الكارثة الوشيكة. وعندما رجع ألبيرتي من جولته، بعد بدء الحرب الأهلية، عُيّن مسؤولاً عن مجلة «الأفرهول الأزرق»، وهي مجلة أدبية موجهة إلى خنادق القتال. وذهب نيرودا لزيارته، حاملاً معه قصيدته «أنشودة إلى أمهات جنود الميليشيا القتلى» التي ضمها، في ما بعد، إلى مجموعته الشعرية «**إسبانيا في القلب**». ويمكن التأكيد بأنها كانت قصيدته النضالية الأولى.

أنا لا أنسى مصابكن،

أعرف أبناءكن

Twitter: @ketab_n

وإن أكن فخوراً بمماتهم،
فإنني أيضاً، فخور بحياتهم.

ضحكاتهم
كانت تلمع كالبرق في المصانع الصماء،
وخطواتهم في «المترو»
كانت ترن بجانبي كل يوم،
وإلى جوار برتقال «ليفانتي»، وشِبَاك الجنوب،
بجانب حبر المطابع، وفوق إسمنت الأبنية
رأيت قلوبهم تتأجج
بالنار والنشاط.

لقد نشر ألبيرتي هذه القصيدة، مغفلة من التوقيع، حتى لا يضر بالوضع الدبلوماسي لصديقه. ولكن حيطته كانت بلا جدوى؛ إذ إنّ نيرودا قد التزم بكل جوارحه، وربط مصيره بمصير الجمهورية. فقامت حكومة أرتورو أليساندري، التشيلية المحافظة، بتنحيته عن منصبه الدبلوماسي.

في هذه الفترة بالذات، ينفصل الشاعر عن زوجته ماريا أنطونيتا هاغينار ـ تسافر هي إلى هولندا برفقة ابنتهما ـ ويعيش نيرودا مع ديليا دل كاريل. ويسافر الشاعر إلى فلنسيا، ثم إلى باريس، حيث

Twitter: @ketab_n

يصدر ـ بالتعاون مع نانسي كونارد التي يكرس لها صفحات رقيقة ومشرقة في مذكراته ـ المجلة المناضلة: «شعراء العالم يدافعون عن الشعب الإسباني». وفي شباط (فبراير) ١٩٣٧، يلقي محاضرة مؤثرة عن غارسيا لوركا، وينظم مع لويس أراغون دائم النشاط، مؤتمر الكتّاب المعادين للفاشية الذي عقدت جلساته التحضيرية في فلنسيا، وكان يفترض عقده في مدريد المحاصرة، في تلك الأيام. «لم يخرج قط، من باريس قطار ممتلئ بالكتّاب، مثل ذلك القطار»، هكذا يتذكر نيرودا، مشيراً إلى قافلة المثقفين الخيالية المتوجهة إلى العاصمة الإسبانية، في قطار ضم في عرباته: ثيسر بابيخو، فيثنتي هويدوبرو، أندريه مارلو، أوكتافيو باث، رافائيل ألبيرتي، تريستان تزارا، جولين بندا، راؤول غونثالث تونيون، وعشرات آخرين من الكتّاب الإيطاليين، والإنكليز، والسوفييت... بالإضافة إلى نيرودا نفسه وأراغون. فالحرب الإسبانية ـ وهي دون شك، الحدث الذي سال من أجله، أكبر قدر من الحبر في القرن العشرين ـ قد جمعت حولها، ومنذ بدايتها، عدداً ضخماً من أهم الكتّاب في العالم.

في شهر تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٣٧، يعود نيرودا إلى تشيلي، حيث ينشر «**إسبانيا في القلب**». وقد كان النجاح الذي لاقاه الكتاب، صاعقاً وحاسماً؛ ففي بضعة شهور، تنفد أربع طبعات متتالية منه. وفي خضم القتال في الجبهة الشرقية، قريباً من

Twitter: @ketab_n

«خيرونا»، يقيم مانويل ألتولاغييري مطبعة ميدان، وينشر الطبعة النضالية الشهيرة من «**إسبانيا في القلب**».

لقد تعلم جنود الجبهة كيفية صف حروف الطباعة. ولكن الورق كان ينقصهم حينئذ. وجدوا طاحونة قديمة، فقرروا صنعه هناك. فكان ما صنعوه خليطاً عجيباً، بين القنابل المتساقطة، وسط المعركة. لقد كانوا يلقون بكل شيء في المطحنة، بدءاً من راية للعدو، حتى عباءة مدماة لجندي مغربي. على الرغم من هذه المواد الغريبة، ومن الانعدام التام للخبرة، فقد خرج الورق بديعاً جداً. إن النسخ القليلة التي ما زالت محفوظة من هذا الكتاب، تثير الدهشة بحروفها وطباعتها ذات الصنعة الغريبة. لقد رأيت، بعد عدة سنوات، نسخة من هذه الطبعة في واشنطن، في مكتبة الكونغرس، موضوعة وراء واجهة زجاجية، كأحد الكتب النادرة جداً في عصرنا.

بعد فترة قصيرة من إنجاز هذه الطبعة الأسطورية، بدأ انهيار الجمهورية بتسارع مطرد. ويقول تيرودا:

مع تلك الطوابير الراحلة إلى المنفى، كان يمضي الجنود الأحياء من جيش الشرق، وبينهم مانويل التولاغييري والجنود الذين صنعوا الورق، وطبعوا

Twitter: @ketab_n

«**إسبانيا في القلب**». لقد كان كتابي هذا مفخرة لأولئك الرجال الذين عملوا في طباعة أشعاري، وهم يتحدون الموت. عرفت أن كثيرين منهم آثروا حمل أكياس تحتوي النسخ المطبوعة على حمل أغذيتهم وملابسهم. وانطلقوا بالأكياس على أكتافهم، في المسيرة الطويلة، نحو فرنسا.

لقد تعرض ذلك الطابور الهائل الذي يسير إلى المنفى، لغارات الطائرات مئات المرات. سقط عدد كبير من الجنود، وتبعثرت الكتب في الدروب. وتابع آخرون الهروب الذي لا نهاية له. وهناك، وراء الحدود، عاملوا الإسبان الذين وصلوا إلى المنفى، معاملة جلفة قاسية. وقُدمت النسخ الأخيرة من ذلك الكتاب، قرباناً إلى المحرقة، ذلك الكتاب الملتهب الذي ولد ومات في خضم المعركة.

وستصبح أمريكا الجنوبية، بالنسبة للإسبان، الملجأ والملاذ الذي رفضت فرنسا منحهم إياه. فقد حركت الأرجنتين، والأروغواي، وتشيلي... كل إمكانياتها لاستقبال اللاجئين. وقابل نيرودا الرئيس التشيلي أغيره ثيردا، وكان قد انتُخب لتوه، لينقل إليه قلقه حول أوضاع إسبانيا، فعينه الرئيس قنصلاً لشؤون المهاجرين ـ وهو منصب ابتكره في تلك اللحظة بالذات ـ وجعل مقره في

Twitter: @ketab_n

باريس. لقد شرح نيرودا للرئيس أغيره ثيراد، بفطنة، أن المهمة معقدة، وأن المهاجرين يعدون بالآلاف. ويجيبه الرئيس:ـ أحضر لي إسباناً، سنوفر متسعاً للجميع. أحضر لي صيادين، أحضر لي باسكيين، قشتاليين، اكستريمادوريين...

بهذا التصريح السخي، يعدو نيرودا إلى أوروبا ـ على الرغم من أن إحدى ساقيه كانت ملفوفة بالجبس، بعد عملية جراحية أجريت له ـ ويبقى في باريس منذ آذار (مارس) ١٩٣٩ حتى نهاية ذلك العام، فيشهد سقوط الجمهورية الإسبانية، وبداية الحرب العالمية الثانية. وبعد عمل دؤوب، ومواجهة ألف صعوبة، يتمكن أخيراً من استئجار السفينة «وينبيغ» التي تصل في أواخر السنة إلى ميناء بالبارايسو، في تشيلي، مزدحمة باللاجئين الإسبان. وفي «**ذكريات إيسلا نيغرا**»، يتذكر الشاعر مفخرة ذلك الإبحار الحاشد:

سفينتي كانت تنتظر،
باسمها الصاخب،
«وينبيغ»،
ملتصقة برصيف الحديقة المشتعلة،
بالأعناب القديمة الفظة في أوروبا.
ولكن معشري الإسبان لا يأتون
من فرساي،

Twitter: @ketab_n

من حفلات الرقص المفضضة،
من سجاجيد الدَيسم القديمة،
من الكؤوس التي تزغرد
بالنبيذ،
لا، ليسوا آتين من هناك،
لا، ليسوا من هناك.

ويرجع نيرودا معهم إلى أميركا، في مفرق الأربعينيات. وسيكون هذا العقد هو العقد الأكثر أمريكية في حياة الشاعر. وفي نهايته تماماً، يرتقي قمة «**النشيد الشامل**».

***

في العام ١٩٤٧، تنشر دار النشر لوسادا في بوينس آيرس ديوانه «**إقامة ثالثة**» (١٩٣٥ ـ ١٩٤٥)، وهو يضم نتاج نيرودا في الفترة ما بين إصداره «**إقامة في الأرض**» (الجزأين الأول والثاني)، و«**النشيد الشامل**». ويشكل انعكاساً أميناً للسنوات التي مرت ما بين هذين الكتابين العظيمين، فديوان «**الإقامة الثالثة**» هو من أقل كتب نيرودا وحدة، بل إنه يغص بنقاط الضعف في ما يتعلق بمفهومه الشعري للعالم. وعلى الرغم من بعض اللمحات اللامعة ـ فشاعر كبير لا يمكن له أبداً أن يخطئ في كل شيء، مهما كان غريب

Twitter: @ketab_n

الأطوار ـ إلا أن «**الإقامة الثالثة**» هو كتاب باهت في قسمه الأول («الغارقة السماوية») الذي يحاول اقتفاء أثر شقيقيه السابقين، ولكننا نلمس فيه التحضير للأشعار المناضلة والنفس العنيد الذي سيكتمل في «**النشيد الشامل**».

ووسط هذا التردد، تظهر قصائد العشق المتشامخ، والكلمة العنيفة، في ديوان «**الغضبات والمشقات**» الذي كُتب عام ١٩٣٤، ونُشر ككتاب مستقل، عام ١٩٣٩، لدى عودة الشاعر إلى تشيلي. إنه قصيدة حب وكآبة طويلة، **فالغضبات** كتاب معاصر لديوان «**الإقامة الثانية**»، يتنفس من ذات النفس البارع والمحزون الذي تنفست منه قصائد «ليس ثمة نسيان» و«وكينغ أروند».

بعد كل الشاعرية المتقنة التي مارسها نيرودا، في الفترة ما بين العشرين والثلاثين من عمره، أتت «**الإقامة الثالثة**» لتغير بعنف وبحسم، من نبرته: والسبب هو الحدث الإسباني.

فكتاب المعركة «**إسبانيا في القلب**» ـ الذي يبتدئ بقصيدة مباشرة عنوانها «**اجتماع تحت الرايات**» ـ هو اللقاء السافر للشاعر مع أحشاء العالم. فهو لا يزال قلقاً في شاعريته الجديدة. وفي مناسبات قليلة فقط، يتمكن من الارتفاع إلى مستوى أعماله السابقة («سأشرح بعض الأمور»، «منظر ما بعد المعركة») ولكنه في أغلب القصائد الأخرى، يبقى أسير الملصق الدعائي («**الجنرال فرانكو، إلى الجحيم**»)، أو ينحدر إلى التبسيط التعدادي (في قصيدة «**كيف**

Twitter: @ketab_n

كانت إسبانيا» ينظم ترتيلة من ستة وخمسين بيتاً، تقتصر على تعداد أسماء أكثر من مئة قرية إسبانية).

الجزء الخامس والأخير من «**الإقامة الثالثة**»، كُتب خلال سنوات الحرب العالمية، وهو شديد الاتصال بتصريح أدلى به الشاعر لصحيفة «إلسيغلو»، الصادرة في سنتياغو، أواخر شهر شباط (فبراير) ١٩٤٣ :

> إن كل إبداع لا يُوظّف في خدمة الحرية، في أيام التهديد الشامل هذه، ما هو إلا خيانة. فكل كتاب يجب أن يكون رصاصة ضد المحور، وكل لوحة يجب أن تكون دعاية، وكل بحث علمي يجب أن يكون أداة وسلاحاً للنصر.

Twitter: @ketab_n

النشيد الشامل

(١٩٣٨ ـ ١٩٥٠)

«اصعد معي أيها الحب الأمريكي»

ليس «**النشيد الشامل**» هو أكثر أعمال نيرودا شمولاً وطموحاً فقط، بل ربما هو أكبر عمل منهجي في تاريخ الشعر الناطق بالإسبانية، على الإطلاق. فقد كُتبت صفحاته على امتداد أكثر من عشر سنوات، وهي موزعة في خمسة عشر فصلاً، مقسمة إلى ٢٤٩ نشيداً، ويتجاوز مجموع أبيات الكتاب الثلاثة عشر ألف بيت من الشعر.

كانت فكرة الشاعر في البداية، تقتصر على كتابة «**النشيد الشامل لتشيلي**»، (الذي أصبح فيما بعد الفصل السابع من **النشيد الشامل**). وتستجيب هذه القصيدة الضخمة، أكثر من أي عمل آخر من أعمال الشاعر، لغايته في نظم تأريخ شامل، وهي الغاية التي طالما راودت ذهن نيرودا منذ البدء، بتنفيذ مؤلفه، والتي سيعود إلى محاولتها (بأسلوب آخر) في كتب **الأغنيات** المختلفة، وفي

Twitter: @ketab_n

ذكريات ايسلا نيغرا. وعندما نشر هذا الكتاب الأخير، قام نيرودا بمراجعة لنتاجه حتى ذلك الحين، وبتوضيح الدوافع التي شجعته على إنجاز كل مؤلف من مؤلفاته الكثيرة:

عندما كنت أعيش في العزلة، بعيداً عن الناس، وبالاستناد إلى هدف إبراز وحدة شاملة عظيمة للعالم الذي أريد التعبير عنه، كتبتُ كتابي الأكثر جموحاً واتساعاً: **النشيد الشامل**. وقد كان هذا الكتاب تتويجاً لمحاولتي الطموحة. إنه فسيح باتساع قطعة كبيرة من الزمن، وفيه كثير من الظلال والأضواء في الوقت نفسه، لأنني رميت إلى الإحاطة بالفضاء الرحب الذي تتحرك فيه، وتنمو، وتعمل، وتضمحل الحيوات والشعوب (...) وعلى الرغم من استخدامي لتقنيات عديدة في هذا **النشيد**، ابتداء من الإيقاعات الكلاسيكية القديمة، حتى نمط الأشعار الشعبية، إلا أنني أريد أن أقول بضع كلمات حول الهدف الذي توخيته من أحد أساليبي، وأعني به المباشرة التي يعيبني عليها الكثيرون، وكأن هذا الأسلوب يشوه أو يدنس الكتاب. إن المباشرة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمفهومي لـ **التأريخ**. فالشاعر يجب أن يكون، إلى حد ما، مؤرخاً لعصره. والتأريخ يجب ألا يكون جوهراً، ولا نقاء، ولا تثقيفاً وتهذيباً، وإنما يجب أن يكون

Twitter: @ketab_n

وعراً، معفراً، ماطراً، ويومياً.. يجب أن يتضمن البصمات البائسة للأيام التي تكر، ويحمل ضيق الإنسان وزفراته...

يمكن لنا أن ندلي بأي رأي حول «**النشيد الشامل**»، باستثناء القول إن نيرودا لم يتوصل إلى إنجاز الهدف الذي كتب العمل من أجله. إن **النشيد** هو، بلا شك، تأريخ لأميركا. ولكن هذا الوصف مقتضب، وغير كاف للإحاطة بكل المجالات التي يتحرك فيها هذا الكتاب (التاريخ، الجغرافيا، الفلكلور، مملكة النبات، الانثربولوجيا...)، أو بغناه بالأصوات والأوزان والإيقاعات (فالنبرة التنبؤيّة تتناوب مع أنغام «الصعلكة»، والرومنثير الهادئ مع الإيقاعات الغاضبة، والأمل مع الغنائية المحلقة، والجزالة اللفظية الإسكندرانية تتناوب مع الموال الشعبي. وهذا بدوره مع البحور مكسورة الوزن. والأنغام الترتيلية تفسح المجال للمقطعات المتزمتة، وبيت الشعر الحر للقافية الصارمة). من كل هذه الأوزان والأصوات والإيقاعات، شيد الشاعر، بتناسق تام، الهندسة السيمفونية لهذا العمل البارع.

وبما أن الأمر كذلك، فلا بد من التفصيل في الحديث عن «**النشيد الشامل**» وتناوله فصلاً فصلاً، في محاولة للاقتراب، قدر الإمكان، من عظمته الحاسمة.

Twitter: @ketab_n

I. المصباح في الأرض:

يبدأ الكتاب بابتهال إلى عالم ما قبل الفتح الإسباني: «أرضي التي بلا اسم بلا أميركا»، إلى الأصول الجيولوجية، إلى الغابات التي تسكنها العصافير، وسلاسل الجبال غير المتناهية.. إلى أصوات الماء التي سُميت، فيما بعد، «اورنيوكو»، و«الأمازون»، و«تيكينداما»، و«بيو ـ بيو»... حيث «لا أحد. انْظُر إلى الحجارة/ انْظُر إلى حجارة أراوكو». وفي نهاية هذا الفصل فقط، تبدأ القبائل والشعوب بسكنى هذه الأرض، فتأتي قبائل وشعوب: راهومارا، والأزتيك، والكاريب، والمايا، والإنكا، والأروكاني...

قبل لمة الشعر المستعار والسترة
كانت الأنهار، الأنهار الشريانية:
وكانت سلاسل الجبال. وبين تعرجاتها المخططة
كان الكندور والثلج يبدوان دون حراك:
كانت الرطوبة، الأدغال، الرعد
جميعها لا تزال دون أسماء،
وكانت السهوب الكونية.
«حب أميركا (١٤٠٠)»

Twitter: @ketab_n

أمازون، يا عاصمة إيقاعات الماء،
أيها الأب البطريرك
أنت السرمدية السرية
للخصوبة،
تتساقط إليك أنهارٌ كالطيور،
تغطيك حبوب طلع لها لون الحريق،
والجذوع العظيمة الميتة تضمخك بالشذى،
والقمر يعجز عن مراقبتك أو قياسك.

«الأنهار تنضم»

II. مرتفعات ماتشو بيتشو:

في شهر تشرين الأول ١٩٤٣، وبينما كان في طريق عودته إلى سنتياغو، بعد مهمة دبلوماسية في المكسيك، زار نيرودا البيرو. ودعي هناك ليتعرف على أطلال ماتشو بيتشو، وهي مدينة قديمة؛ يرجع بناؤها إلى ما قبل سيطرة هنود الإنكا على البيرو، شُيدت على ارتفاع ٢٤٠٠ متر، وسط الجبال، وتطل على الأخدود الذي يمر منه نهر اوربامبا. وقد اكتُشفت أطلالها سنة ١٩١٢ على يد عالم الآثار هيراسو بينجهام. ومنذ ذلك الحين، تحولت إلى رمز يدلل على القِدم السحيق للثقافة الأمريكية. وكان الفاتحون الإسبان

Twitter: @ketab_n

يجهلون وجودها. وربما لم يكن لدى هنود الإنكا أنفسهم، إلا مجرد قصة خرافية عنها. وقد كتب نيرودا، متأثراً بجلال تلك الأطلال ـ بعد سنتين من زيارته ـ قصيدة طويلة من اثني عشر نشيداً، هي إحدى القمم المطلقة في نتاجه الشعري. فكل العمق الميتافيزيقي الذي في «**إقامة في الأرض**» و«**الإقامة الثانية**»، يتبدى من جديد، في هذه القصيدة، وقد تغلغل تماماً في الشاعرية الجديدة للمؤلف. ونجد عظمة هذه القصيدة أيضاً، في رفعتها على صعيد البناء الشعري، وفي التدرج الدرامي الرائع الذي يعطي القصيدة تطورها المتصاعد. ولا شك في أن هذا الفصل هو واحد من أجمل فصول «**النشيد الشامل**».

I

من الهواء إلى الهواء، مثل شبكة فارغة
أمضي في الدروب، وسط السديم، لأصلَ وأودع،
في تنبؤات الخريف، قطعة النقد المتدلية
من الأوراق.

(أيام بريق حي في عراء الأجساد:
فولاذ متحوّل

Twitter: @ketab_n

في صمت الأكاسيد:
ليالٍ تحللت حتى آخر ذرة طحين:
خيوط غَزْلٍ مغدورة من وطن الزفاف).

ثمة من انتظرني بين الكمنجات،
فوجد عالماً مثل برج مدفون
يغرس حلزونه أعمق من جميع الوريقات
ذات اللون الكبريتي الفظ:
أكثر عمقاً، من الذهب الجيولوجي.
وكسيف تكتنفه النيازك،
غرستُ اليد المرتعشة الحانية
في أعمق ما هو تناسلي من الأرض.

وضعت جبهتي بين الأمواج العميقة،
ونزلتُ مثل قطرة بين السلام الكبريتي،
وكأعمى، رجعتُ إلى الياسمين
إلى الربيع البشري المُستهلَك.

Twitter: @ketab_n

VIII

اصعد معي أيها الحب الأمريكي.

قبّل الحجارة السريّة.

فضة نهر «أوروبامبا» الغزيرة

تجعل ذرات الطَّلْع تتطاير إلى كؤوسها الصفراء.

X

أيها الحجر الجاثم في الحجر، أين كان الإنسان؟

أيها الهواء المنتشر في الهواء، أين كان الإنسان؟

أيها الزمن المتداخل في الزمن، أين كان الإنسان؟

أكنت النثار المحطم،

نثار الإنسان الذي لم يكتمل خلقه،

نثار النسر الأجوف،

ذلك الذي يمضي في الدروب اليوم،

وفي آثار الأقدام،

وفي أوراق الخريف الميت

ذلك الذي يعذب الروح حتى الممات؟

Twitter: @ketab_n

أين اليد الفقيرة، والقدم، والحياة البائسة...
أين أيام النور المتفككة فيكَ،
مثل قطرات المطر المتساقطة
فوق رايات الاحتفال،
القطرات التي أعطت، نبتة بعد نبتة، للفم الفارغ،
من طعامها القاتم؟
أيها الجوع، يا مرجان الإنسان،
أيها الجوع، يا نبتة سرية، يا جذر الحطابين،
أيها الجوع، هل صعد خطك متجاوزاً الحد
ليصل إلى هذه الأبراج العالية المنسلخة؟

آه يا ماتشوبيتشو،
لقد بُنيتِ حجراً فوق حجر، والأساس؟ أسمال؟
وفحماً فوق فحم، وفي العمق؟ دموع؟
وناراً في الذهب، وفيه يرتعش قانياً
الدم النازف؟
ماتشوبيتشو!
أعيديْ إليّ العبد الذي دفنتِه!

Twitter: @ketab_n

وانفضي التراب عن الخبز اليابس

خبز البائسين،

أريني ملابس العبد ونافذته.

أخبريني كيف كان ينام وهو حيّ.

أخبريني إذا ما كان يشخر

في نومه، ويحلم بهُوّة سوداء.

XII

اصعد يا أخي، لنولد معاً،

مدّ لي يدك من أعماق بؤرة ألمك المبدّد.

إنك لن تعود من أعماق الصخور.

لن تعود من الزمن تحت الأرضي.

ولن يعود صوتك المتحجر.

ولن تعود عيناك المثقوبتان.

حدّق بي من أعماق الأرض،

أيها الفلاح، والحائك، والراعي الصامت،

وأنت يا مروض الغواناكو الجامحة،

Twitter: @ketab_n

وأنت أيها البنّاء الذي يتحدى السقالة،
وأنت أيها الصائغ ذو الأصابع المسحوقة،
وأنت أيها الزَّراع المرتجف في البذرة،
وأنت أيها الخزاف،
يا من تسكب ذاتك مع صلصالك:
احضروا كلكم إلى كأس الحياة الجديدة هذه
آلامكم القديمة الدفينة.
أروني دمكم،
أروني الأخاديد التي حفرتها السياط،
وقولوا لي: هنا عُذّبت،
لأن الحلية لم تكن تلمع، أو لأن الأرض
لم تَمنَح، في موسمها،
الحجر أو الغلة.
أروني الحجر الذي سقطتم عليه،
والخشبة التي صلبوكم عليها،
اقدحوا لي حجارة الصوان القديمة،
وأشعلوا القناديل العتيقة،
والسياط التي صفعت

Twitter: @ketab_n

قروحكم عبر القرون.

أنا آت لأنطق بفمِكم الميت.

فوحدوا، عبر الأرض،

كل الشفاه النازفة

ومن الأعماق، حدثوني عن هذا الليل الطويل كله،

كما لو كنت مدفوناً معكم،

حدثوني عن كل شيء: عن قيودكم،

سلسلة فسلسلة،

حلقة فحلقة، وخطوة فخطوة،

واشحذوا المُدى التي بها تحتفظون،

واغمدوها في صدري وفي يدي،

كنهر من البروق الصفراء،

كنهر من النمور المدفونة،

ودعوني أنتحب لساعات، لأيام، لأعوام،

لعصور عمياء، وقرون كوكبية.

امنحوني الصمت، والماء، والأمل.

امنحوني النضال، والحديد، البراكين.

التصقوا بجسدي وكأنه قطعة مغناطيس.

Twitter: @ketab_n

هلموا إلى عروقي وفمي.

وانطقوا بكلماتي ودمي.

III. الغزاة:

الفصل الثالث من الكتاب، هو إدانة قاسية للهمجية التي احتفل بها الغزاة الإسبان («دخلوا على الجياد يقتلون/ قطعوا اليد التي لوحت لهم مرحبة/ أغلقوا الساحة، وأنهكوا أذرعهم/ قتلوا زهرة المملكة/ وغرقوا حتى المرافق في الدماء/ دماء إخوتي المغدورين»)، ولممارسات السلب والدناءة التي لجأ إليها قادتهم العسكريون، ولحماقة رجال الدين وتعصبهم: («رفع القس ذراعه،/ وأحرق الكتب في الساحة/ باسم ربه الصغير/ وجعل من الأوراق القديمة دخاناً/ والدخان لا يرجع من السماء»). ليس هذا وحسب، وإنما نرى الشاعر يحس أيضاً بعظمة أولئك الفاتحين الأفظاظ القساة الذين لا يمكن تصورهم، من وجهة نظرنا الإنسانية، مثلما يفعل في «**تحية إلى بالبوا**».

أيها المكتشف،

إن البحر الفسيح، وزبدي أنا،

ارتعاشة القمر، إمبراطورية الماء،

Twitter: @ketab_n

تُكلِّمك بفمي عَقِبَ قرون.
كمالُكَ وصل قبل الموت.
رفعتَ التَعبَ حتى السماء،
ومن ليل الأشجار القاسي
قادَكَ العرق حتى شاطئ أعمق البحَار،
حتى المحيط الكبير.

IV. المُحَرِّرون:

إنه أكثر فصول النشيد الشامل إبرازاً للتاريخ، وأحد أطول الفصول الخمسة عشر التي تشكل العمل. فابتداء من زعماء الهنود ـ مثل كواوتيموك أو لاوتارو أو توباك آمارو ـ الذين تصدوا للغزو الإسباني في القرن السادس عشر، حتى المحاربين والقادة العماليين في القرن العشرين ـ زاباتا، ساندينو، ريكابارين، برستيس ـ مروراً بمن أُطلق عليهم لقب «آباء الوطن» ـ أبطال حروب الاستقلال، مثل: ميراندا، وبوليفار، وسان مارتين، وأوهيجينس، وخوسيه مارتي ـ، يقوم نيرودا بتمجيد الدعوات والحركات التحررية في أميركا، خلال أربعمئة سنة، كما يتعرض لقدرها المحكوم بالاستلاب، متابعاً تبدلات الأسياد.

وهذا الفصل غني أيضاً، بتنوع رائع في الأوزان والإيقاعات؛

Twitter: @ketab_n

ففيه يمزج ما بين النظم الكلاسيكي العالي كما في قصيدة «خوسيه ميغيل كاريرا» وينتقل إلى الإيقاعات الشعبية الرتيبة، كما في أهزوجة «مانويل رودريغث».

أيها المُحَرِّرون في هذا الغسق الأمريكي،
أيها الفرسان الزرق،
ثمة من تسلّم السلام الذي أحله البطل،
وأخفاه في القبو،
ثمة من سرق ثمار المحصول الدامي
واقتسم الجغرافيا
مقيماً حدوداً عدائية بيننا،
ومناطق ظلال عمياء معزولة.
«سيأتي اليوم»

٧. الرمل المغدور:

وكنشيد معاكس للفصل السابق، يتعرض هذا الفصل للدكتاتوريين والطغاة الأمريكيين الذين حكموا القارة، خلال أكثر من مئة عام، وهو الزمن الذي انقضى على استقلال أميركا

Twitter: @ketab_n

الإسبانية. وفي هذا الفصل ملحق خاص مكرس لغُونثالث بيديلا «خائن تشيلي»، الذي وصل إلى سدة السلطة عام ١٩٤٦ بدعم من القوى الشعبية، ثم ما لبث أن انقلب تماماً على برنامجه، بعد وصوله إلى الرئاسة. وفَقَدَ نيرودا ـ الذي كان مسؤولاً عن الدعاية في حملة بيديلا الانتخابية ـ بعد ذلك حصانته البرلمانية، ليتحول إلى أشد معارضي الدكتاتور قسوة. فعانى من الملاحقة، وأمضى أربعة عشر شهراً في السرية ـ للمرة الأولى والوحيدة في حياته ـ لكي ينجو من الوقوع في الاعتقال. وفي فترة السرية هذه بالذات، أنهى كتابه **النشيد الشامل**.

أيتها العظاءة، يا أمريكا الملتفة
على النمو النباتي،
أنتِ أرضعت أبناءَ أفظاظاً
بحليب أفعى سامة.
مهود حارقة احتضنتهم،
ووحول صفراء غطت
هذه السلالة من القتلة الدمويين.
القط والعقرب زنيا
في الوطن الغابي،

Twitter: @ketab_n

فكان هؤلاء.

«الجلادون»

VI. أميركا، لا أدعو باسمك باطلاً:

فصل قصير، على شكل معترضة، بين الثلثين الأول والثاني من مخطط العمل. وهو مؤلف من ثماني عشرة قصيدة قصيرة مختلفة المواضيع. والجو العام المسيطر عليها هو تضامن الشاعر مع المضطهدين المنبوذين في الأرض.

VII. النشيد الشامل لتشيلي:

مؤلف من سبعة عشر مقطعاً تلخص المخطط الأصلي الذي وضعه الشاعر عام ١٩٣٨: جولة في التاريخ، بين الناس، الأحجار، الأزهار، فنون بلاده التقليدية. كل ذلك في بناء انسيابي منطلق، يربط تقريباً، بين موضوع وآخر، دون انقطاعات مفاجئة جافة أو فجوات.

أيها الوطن، يا وطني، أُعيد إليك الدماء.
لكني أطلب منك، مثلما يطلب الطفل من أمه

Twitter: @ketab_n

وهو مفعم بالبكاء.

استقبل هذه القيثارة الكفيفة
وهذه الجبهة التائهة.
خرجتُ بحثاً عن أبناء لك في الأرض،
خرجتُ لأرعى شهداء باسمك الثلجي،
خرجتُ لأشيد بيتاً من أخشابك النقية،
خرجت لأحمل نجمك إلى الأبطال الجرحى.

والآن، أريد أن أنام في جَوهَرك.
فاعطني ليلك الواضح ذا الأوتار النفوذة،
ليلك الثلجي، قامتك المنجمية.
«نشيد وعودة (١٩٣٩)»

VIII. الأرض تسمى «خوان»:

هذا فصل مؤلف من سبع عشرة قصيدة، خمس عشرة منها قصص عمال ومزارعين وحرفيين، مروية بصيغة المتكلم، على لسان أبطالها، على طريقة ادغار لي ماستيرس في «Spoon River

Twitter: @ketab_n

Anthology». إن عرض جوهر هذه الحيوات البائسة، والاستغلال الذي عانته، وإخفاقها، هو تحية مؤثرة من الشاعر إلى «خوان» جميع الأجيال، هذا الذي كان في كل لحظة «وراء المحررين».

وراء المحررين كان «خوان»
يعمل، يصطاد، يناضل،
في ورشة النجارة أو في المنجم الرطب.
يداه حرثتا التراب، واجتاز
الدروب.
عظامه منثورة في كل مكان.
ولكنه يحيا. عاد إلى الأرض. وُلد،
وُلد من جديد مثل نبتة أبدية.
حاولت كلّ الليالي الفاجرة أن تغرقه
وها هو اليوم يطبع شفتيه اللتين لا تقهران
على الفجر.
لقد قيدوه، وما زال يحتفظ بعافيته التفاحية.
قطعوا يديه، وهو اليوم يضرب بهما.
دفنوه، وها هو يغني معنا.
«الأرض تسمى خوان»

Twitter: @ketab_n

IX. فليستيقظ الحطاب:

فصل سياسي. وهو أغنية حب وتحذير إلى الولايات المتحدة الأمريكية الخارجة، لتوها منتصرة، من الحرب العالمية الثانية. يستحضر فيه نيرودا ظلال جواميس «البوفالو»، وحرية السهوب الفسيحة، وكلمات ويتمن ومِلفيل، وأحلام لينكولن المعادية للعبودية (ولينكولن هو الحطاب المقصود في العنوان). وفي نهاية رائعة، وبأبيات قصيرة، يبشر بالأخوة العالمية، ببساطة صعبة، كما في ديوانه «**شاذ**». يقول الشاعر:

لا أريد أن يفكر أحد بي
فلنفكر بالأرض كلها،
ونحن ننقر على الطاولة بحب.
لا أريد أن تعود الدماء من جديد
لتلطخ الخبز واللوبياء،
والموسيقى.
أريد أن يأتي معي عامل المنجم،
والفتاة، والمحامي، والبحار،
وصانع الدمى،
لندخل إلى السينما ونخرج معاً

Twitter: @ketab_n

لنشرب أشد النبيذ احمراراً.

أنا لست آتٍ لأحل أية قضية.

لقد أتيت هنا لأغني
ولتغنوا معي.

X. الطريد:

بعد رفع الحصانة البرلمانية عنه ـ كان قد انتخب عام ١٩٤٥ عضواً في كونغرس الجمهورية عن منطقتي تاراباكا وانتوفاغاستا ـ تعرض نيرودا لمحاكمة سياسية. فانتقل إلى السرية. وقد جال طوال سنة عبر تشيلي، التجأ خلالها إلى بيوت عديدة، كانت تقدم له المأوى، وكان في أثناء ذلك يكتب **النشيد الشامل**، إلى أن تمكن من اجتياز سلسلة جبال الأنديز من طرفها الجنوبي، على متن بغلة، ووصل إلى الأرجنتين في شباط ١٩٤٩، متنكراً، وبشارب كثيف يجعله غير معروف. وكل ما كان يحمله معه، هو المخطوطة الأصلية **للنشيد**. وكان كتابه ـ المتخفي مثله ـ يحمل عنواناً مزيفاً: ***ضحكات ودمعات***، ويقبع في حقيبة تحمل اسم بينيغنو اسبينوثا. وهذه هي التجربة التي يقصها في الفصل العاشر.

Twitter: @ketab_n

إلى الجميع، إلى الجميع،
إلى كل الذين لا أعرفهم، إلى كل أولئك
الذين لم يسمعوا باسمي قط،
إلى الذين يعيشون على ضفاف أنهارنا الطويلة،
وعلى سفوح البراكين، وفي ظل
النحاس الملتهب،
إلى الصيادين والفلاحين،
إلى الهنود الزرق المقيمين على شواطئ
البحيرات المتلألئة كالبلور،
إلى الإسكافي الذي يتساءل الآن
وهو يخيط الجلد بأيد هرمة،
إليك أنت، يا من انتظرتني دون أن تعرفني،
إليكم جميعاً أنتمي، وبكم أعترف،
ولكم أغني.

XI. أزهار بونيتاكي:

بهذا الفصل، يبدأ الثلث الأخير من العمل. وموضوعه هو سرد وقائع الحملة الانتخابية التي قام بها نيرودا في شمال تشيلي، والتي

Twitter: @ketab_n

انتخب بعدها، عضواً في مجلس الشيوخ. إنها حملة انتخابية فريدة من نوعها ـ عمادها الأساسي الشعر والاتصال الشخصي والمباشر بالفلاحين ـ وقد كانت هذه التجربة حاسمة في حياة نيرودا، وأكدت له حقيقة المنابع التي اختارها لشعره.

XII. أنهار الغناء:

ميغيل أوتيرو سيلفا، ورفائيل ألبيرتي، وغونثالث كاربالهو، وسيلفيستري ريفويلتاس، وميغيل هيرناندث، هؤلاء الأخوة الشعراء هم «أنهار الغناء»، ولهم يكرس نيرودا هذا الفصل المنظوم بموسيقى بطيئة، متخذة شكل الاتصال الرَسائلي.

أنت تعلم يا بني كل ما لم أعلمه، وأنت تعرف
بأنك كنتَ لي،
في كل القصائد، كنتَ اللهب الأزرق.
واليوم أضع وجهي على التراب لأصغي إليك،
لأسمعك: دماً، موسيقى، وشهداً محتضراً.

لم أرِ سلالة أكثر تألقاً من سلالتك،
ولا جذوراً أشد صلابة، ولا حتى يدي جندي،

Twitter: @ketab_n

ولم أر شيئاً ينبض بالحياة أكثر من قلبك
الذي أحرق ذاته في أرجوان رايتي.

«إلى ميغيل هيرنانديث، المقتول في سجون إسبانيا»

XIII. كورال سنة جديدة للوطن الذي في الدياجير:

هذا الفصل، حسب التسلسل التاريخي، هو آخر فصول **النشيد**. وقد كُتب عندما كان الشاعر يتأهب للبدء في حياة نفي لا يدري كم ستدوم. ويضم هذا الفصل، مثله مثل سلسلة الجبال التي يلهج بذكرها، سفحين: في أحدهما الهجاء والقدح، وعدم التواني عن إعادة وتكرار الإدانة للدكتاتور غونثالث بيديلا. وفي السفح الآخر، السفح الرائق والمشرق، يؤكد نيرودا، بإصرار أكبر من كل ما تقدم، على وطنيته كتشيلي، وحبه الذي لا سبيل إلى التخلي عنه، للناس والأشياء في وطنه.

سنة سعيدة أيها التشيليون،
للوطن الذي في الدياجير،
سنة سعيدة للجميع،
لكل واحد منكم ماعدا واحداً،

Twitter: @ketab_n

إننا قليلو العدد، سنة سعيدة يا أبناء موطني،

يا أخوتي،

رجالاً، نساء، أطفالاً،

فصوتي يطير اليوم إلى تشيلي، إليكم،

ويضرب مثل عصفور أعمى على نافذتك،

ويناديك من بعيد،

يا موطني،.....

«تحية (١٩٤٩)»

XIV. المحيط العظيم:

علاقة نيرودا الحميمة القديمة بجنوب الباسفيك، تتبدى هنا، للمرة الأولى في شعره، بكل ألقها: إعادة بناء الأسطورة حول جزيرة رابا ـ نوي السحرية (جزيرة باسكوا)، الحوار مع الأعماق السحيقة، والقصائد المكرسة للطيور البحرية أو لسكان الشواطئ، وحتى تلك الجوهرة الصغيرة المنظومة بعنوان «رخوية غونغورية» (التي كتبها عالم الرخويات العظيم: نيرودا)، تعكس غنى مشهدياً وحسياً يضع الفصل بكامله، خارج التاريخ وأحداثه، ويمنحه نوعاً من الثبات الذي تساعد في ترسيخه، إلى حد كبير، الأوزانُ المسترسلة والفخمة التي يستخدمها الشاعر. وكأن نيرودا، وهو

Twitter: @ketab_n

يقترب من اختتام عمله بفصل خاص «عن المؤلف»، يريد أن يعود، مرة أخرى، إلى البهاء الأصيل ـ في الجانب البحري هذه المرة ـ، إلى زمن الأصول الذي سبق الحضارة والذي افتتح به سيمفونيته.

XV. هذا أنا:

للمرة الأولى، يستعرض نيرودا حياته في عمل من أعماله ـ سيعود إلى هذا فيما بعد، حتى ينتهي إلى تصفية حساباته مع نفسه تماماً في ذكريات ايسلا نيغرا ـ مشيراً إلى النقاط المحورية في سيرة حياته: علاقته الحميمة بمنطقة لافرونتيرا («طفولتي هي أحذية مبللة، جذوع مهشمة/ ملقاة في الغابة، تلتهمها النباتات المتسلقة»)، وعاشقة تيموكو («بعض الضفائر فقط ترتفع حركتها/ نحو عزلتي، مثلما ترتفع شعلة سوداء»)، ثم البيت، والأب، والرحلة الأولى إلى سنتياغو، والحبيبة ساكنة الحي الشعبي («آه، أنت أكثر طلاوة، أكثر اتصالاً/ من الحلاوة، أيتها الحبيبة الجسدية»)، والرحلة إلى الشرق، والحرب الاسبانية، ولقاء الحب من خلال علاقته بديليا دل كاريل، وإقامته المؤقتة في المكسيك، وعودته إلى تشيلي، واكتشافه النهائي للأشياء البسيطة والنقية على الأرض («أريد أن آكل بصلاً، أحضر لي من السوق/ واحدة منها، كرة مترعة بالثلج البلوري») ممهداً بهذا للخطوة التالية في شعره

Twitter: @ketab_n

المتمثلة بدواوين **الأغنيات**، ومؤكداً اعتناقه للشيوعية. وفي هذا الفصل ينتصب نيرودا، واقفاً على قدميه، وبكامل قامته، لينهي ملحمته الفسيحة، واضعاً أمام العالم بأسره، المعجبين والأعداء، ملامح هويته بخيرها وشرها.

لستُ أدري، حبيبتي،
إذا ما كان سيتاح لي الوقت والمكان
لأرسم بكلماتي، مرة أخرى، ظلك الرقيق
الممتد على صفحاتي، يا زوجتي:
إنها لقاسية ومشعة هذه الأيام،
نأخذ منها العذوبة
معجونة بالأهداب والأشواك
ما عدت أعرف بدايتك:
لقد كنتِ تأتين قبل الحب،
مع كل ماهيات القدر،
وقبلك، كانت العزلة لكِ،
ربما كانت هي شَعرك النائم.
واليوم، أكاد أسميكِ كأس حبي،
عنوان أيامي، أيتها المعبودة،

Twitter: @ketab_n

وتحتلين أنتِ في الفضاء، كما النهار،
نور الكون كله.

«الحب»

ليهتم غيري بمدافن العظام الميتة...
فالدنيا
لها لون تفاحة عارية: الأنهار
تجرف فيضاً من الأوراق البرّيّة
وفي كل مكان تحيا روساريا الجميلة،
وخوان الرقيق...
.....

«الحياة»

أتنازل للنقابات
نقابات عمال النحاس، والفحم، والنيترات
عن بيتي الذي بجانب بحر إيسلا نيغرا.
أريد أن يستريح هناك أبناء وطني المنبوذون،
وطني المسلوب بالفؤوس والخونة،

Twitter: @ketab_n

المتخبط في دمه المقدس،
المستنزف في أسمال بركانية.

هذا هو بيتي يا أخي،
فادخل إلى عالم الزهرة البحرية والحجر النجميّ
الذي شيدته مناضلاً في فقري.
ها هنا وُلد صوت نافذتي
كما في قوقعة متنامية
ثم رسّخ امتداداته
في جغرافيتي المضطربة.

.....

«شهادة (١)»

هكذا ينتهي هذا الكتاب،
وهنا أترك «النشيد الشامل» ناجزاً
في ظل المطاردة، ومغنياً
تحت أجنحة وطني السرية.
في اليوم الخامس من شباط، من هذه السنة، سنة ألف

Twitter: @ketab_n

وتسعمائة وتسع وأربعين، في تشيلي، في «غودومار دي تشينه»، قبل شهور قليلة من بلوغي الخامسة والأربعين.

«هنا أنتهي»

لقد استقرت فكرة «النشيد الشامل لتشيلي» في ذهن نيرودا عام ١٩٣٨، عند عودته إلى موطنه، بعد السنوات الخمس التي أمضاها في إسبانيا. وفي تلك السنة بالذات، يتوفى والده، ثم تتوفى زوج أبيه، بعد ثلاثة أشهر وبضعة أيام، فيعود إلى تيموكو، العودة المؤثرة التي يسجل الشاعر ذكراها في «كأس الدم». فبعد الانهاك في السفر والنضال، يشعر نيرودا بنداء الجنوب، نداء الغابة والأقيانوس، نداء كل ما هو تشيلي. فيأخذ بالتأهب، ويشتري بيته في إيسلا نيغرا الذي كان في ذلك الحين، بيتاً نائياً، بلا نور كهربائي ولا ماء للشرب، على بعد أربعين كيلومتراً إلى الجنوب من مدينة بالبارايسو. ويفكر في الإقامة هناك، لينظم كتابه. ولكن أحداث حياته المضطربة، وعزلته العميقة، تجعل من هذه الخطط البسيطة أمراً غير ممكن التحقيق؛ إذ إنه اضطر إلى كتابته في ما بعد، وهو يجتاز آلاف الكيلومترات. وقد تأخر الكتاب اثنتي عشرة سنة، ليصل إلى شكله النهائي. وخلال هذا الوقت، اتسع العمل وفاض من حواف تشيلي، ليصبح نشيداً شاملاً لأميركا بأسرها.

لقد رأينا الأسباب التي جعلت من عام ١٩٣٩، معترضة أوروبية جديدة في حياة نيرودا: فبعد انتهاء مهمته مع اللاجئين

Twitter: @ketab_n

الإسبان، يرجع الشاعر من جديد إلى وطنه. ويفعل ذلك، تفاؤلاً، على عتبة سنة جديدة (يوم ٢ كانون الثاني ١٩٤٠)، وفي بداية حقبة ستكون الأكثر أمريكية في حياته. ومع ذلك، فإنه لا يبقى في تشيلي إلا لفترة قصيرة، لأن حكومته تعينه قنصلاً عاماً في مكسيكو، التي يتوجه إليها في شهر آب، من تلك السنة نفسها، ويبقى فيها حتى منتصف الشهر نفسه من سنة ١٩٤٣. وخلال شهري أيلول وتشرين الثاني، يعود إلى تشيلي، عبر الطريق المحاذي لشاطئ الباسفيك، في رحلة طويلة ومفوفة بالحفاوة، سبقها التكريم الصاخب من جانب أصدقائه المكسيكيين. وتكتب مرغريتا أغييري، المتخصصة في سيرة حياته، حول هذه الفترة، فتقول: **في كل مكان، كانوا يبايعونه بصورة لم يحدث مثلها، على ما أعتقد، لأي شاعر آخر.** وعن تلك المرحلة أيضاً يقول رفيقه فولوديا تيتلبويم مؤكداً: **لم يحتل شخص تشيلي قط، مكانة رفيعة، وعزيزة، وخطيرة في عدد كهذا العدد، من البلدان الأمريكية، كالمكانة التي احتلها نيرودا.**

في السنة التالية ـ وقبل إتمامه الأربعين بقليل ـ يُمنح الجائزة البلدية للشعر في سنتياغو. وفي عام ١٩٤٥، يحصل على الجائزة الوطنية للآداب. وتتوالى طبعات كتبه وترجماتها في هذه السنوات، بينما «**النشيد الشامل**» يتابع مخاضه ببطء ودقة.

ومنذ شهر آذار (مارس) ١٩٤٥، يصبح نائباً عن الحزب

Twitter: @ketab_n

الشيوعي، في مجلس الشيوخ. ولكن معارضته لحكومة غابرييل غونثالث بيديلا، تتسبب في طرده ورفع الحصانة البرلمانية عنه. وفي الخامس من شهر شباط (فبراير) ١٩٤٨، يصدر أمر باعتقال نيرودا، فيبدأ الشاعر مرحلة خصيبة من الحياة السرية، ينهي خلالها نشيده الشامل. وبعد هروب درامي إلى الأرجنتين، عبر جبال الأنديز الجنوبية، يغادر كذلك هذا البلد الأخير ـ إذ إن شرطة الجنرال بيرون ما كانت لتتوانى عن تسليمه إلى مطارديه ـ مستخدماً جواز سفر الشاعر والكاتب الغواتيمالي ميغيل آنخل أستورياس، وكانت تربطه به صداقة حميمة، وتشابه كبير في الملامح. وفي أوروبا ـ في نيسان (أبريل) ١٩٤٩ ـ يعود إلى العلنية، ويدعى للمشاركة في المؤتمر الأول لأنصار السلام الأمريكيين اللاتينيين الذي عقد في مكسيكو، في شهر أيلول (سبتمبر) من تلك السنة. ويلتقي هناك، من جديد، بماتيلدي أوروتيا ـ زوجته الأخيرة، وأرملته تالياً ـ والتي كان قد تعرف عليها في تشيلي. وتبدأ العلاقة بينهما: إذ يسقط الشاعر مريضاً، ويضطر إلى البقاء في القطاع الاتحادي من مدينة مكسيكو ـ حيث كانت تعيش ماتيلدي في ذلك الحين، بحكم عملها كمديرة مدرسة للغناء ـ حتى نهايات العام.

وفي مكسيكو بالذات، في بدايات عام ١٩٥٠، تظهر الطبعة الأولى من «**النشيد الشامل**» الذي يستقبله النقد بأشد الحماس، وتجري ترجمته بسرعة إلى لغات العالم الرئيسية في السنوات التالية.

Twitter: @ketab_n

إبحارات وعودات

(١٩٤٩ ـ ١٩٦٤)

«إني أحبكما أيتها المثالية والواقعية،

فأنتما،

جزءان من العالم،

نور شجرة الحياة، وجذرها».

بعيداً عن الإنهاك في الجهد الطوفاني المبذول في «**النشيد الشامل**»، يبدو أن أشعار بابلو نيرودا قد استمدت دفعاً أرضياً ومحيطياً، منذ إنجاز هذا الكتاب؛ فخلال السنوات الخيرة من حياته، صارت أعماله ـ الواسعة ـ ضخمة ومتنوعة. فقد أُضيف إلى **أعماله الكاملة**، خمسة وعشرون كتاباً (أي مجلدين من الورق الرقيق، مؤلفين من ٣٢٣٧ صفحة، صدرا مع الطبعة الثالثة من الأعمال الكاملة عام ١٩٦٨) واستمرت مؤلفاته بالاتساع، فصدرت عشرة كتب أخرى، فيما بعد. كما أُضيفت أحداث جديدة هامة إلى سيرة حياته، حيث نال، ككاتب، جائزة نوبل، ورُشح، كرجل ذي

Twitter: @ketab_n

شعبية، إلى رئاسة الجمهورية في بلاده. وللإطلاع على حياته الخاصة والعامة، سأحيل القارئ ـ منذ الآن ـ إلى العرض التاريخي لحياته الوارد في بداية هذا الكتاب. وسأحاول، في الصفحات المتبقية، أن أركز، بصورة خاصة، على تطور أعماله الشعرية.

إن اختيار التواريخ التي ترافق عنوان هذا الفصل، لم يكن اختياراً محايداً؛ ففي عام ١٩٤٩، أنهى نيرودا «**النشيد الشامل**»، وفي عام ١٩٦٤، نشر الأجزاء الخمسة التي تؤلف «**ذكريات إيسلا نيغرا**». وأنا أرى أن هذين العملين هما العملان الكبيران اللذان يمثلان نضوجه الشعري (ولا بد أن أضيف إليهما أيضاً، ديوان «**أغنية البحارة**» الصادر عام ١٩٦٧). ولكن نيرودا كتب ونشر، خلال هذه السنوات، ثلاثة عشر كتاباً آخر، سأقدمها من خلال تشابُهاتها ـ عندما تتوفر هذه التشابهات ـ متبعاً، بصورة عامة، ترتيبها حسب أهميتها، من الأقل إلى الأكثر أهمية.

«**رحلات**»: هو كتاب نثري، نُشر سنة ١٩٥٥، ويتضمن ثلاث محاضرات ألقاها نيرودا في زمن سابق. المحاضرة الأكثر أهمية منها، هي الأولى («رحلة إلى قلب كيبيدو»)، وذلك بسبب المداخلة الشخصية التي يقوم بها حول الميتافيزيقيا الكيبيدوية القائلة إن «المرض الوحيد القاتل هو الحياة».

في العام ١٩٦٠، ينشر «**أغنية مفخرة**»، وهو الكتاب الشعري الأول المكرس للثورة الكوبية الوليدة. والكتاب منظوم على شكل

Twitter: @ketab_n

مقطعات من أحد عشر بيتاً، متناوبة القوافي؛ أي منظوم بأحد أشد أشكال الهندسة الشعرية تقليدية وشعبية. وذلك لتسهيل حفظه عن ظهر قلب، أو لتحويل قصائده بسهولة إلى أغانٍ. وفي السنة التالية، يظهر ديوان «**أحجار تشيلي**»، ليمثل فصلاً جديداً ـ يمكن تسميته الفصل الحجري ـ في هذا التأريخ الشاهدي القائم في مركز المشروع الشعري النيرودوي.

ديوانان حول الحب، هما اللذان يكرسهما الشاعر لزوجته ماتيلدي أوروتيا. وإذا كان بالإمكان رؤية الكتابين كليهما، ككل واحد، من ناحية وحدة العاطفة التي أوحت بهما، فإنهما مختلفان في ما يتعلق بالشكل الفني، والبناء، وأستطيع أن أقول إنهما مختلفان في المزاج كذلك. فديوان «**أشعار القبطان**» (كُتب سنة ١٩٥٠، ونُشر في إيطاليا على يد الناشر باولو ريشي، في طبعة خاصة ومغفلة من توقيع صاحبه كذلك، سنة ١٩٥٢. وقد اعترف به الشاعر أخيراً، في عام ١٩٦٣)، يبدو استمراراً لقصائد الحب العشرين الشهيرة، سوى أنه محمّل بتجربة جسدية أكبر، وبرؤية غنائية راسخة الأقدام في الأرض. أما ديوان «**مئة قصيدة حب**» (١٩٦٠) فهو، على العكس، أحد أعمال نيرودا الشعرية المشغولة بتقنية عالية. إن هذه «القصائد الخشبية» ـ كما يسميها الشاعر، وهو يشير إلى رفضه الطوعي للقوافي الغنائية ـ تصدح، على كل حال، بموسيقى رائعة، تكفي بحد ذاتها، لتبدد أكثر من نقد أخرق، حول إخلاص نيرودا وحميميته في عمله (والقضية هي أن لا بد من قلب

Twitter: @ketab_n

جميع حدود هذا النقد، فعندما يهبط نيرودا لينظم أشعاراً ديماغوجية، أو مكرورة، أو نائحة، فهو دون شك، لا يفعل ذلك لأنه «لا يخرج معه» ما هو أفضل، وإنما لأن لديه أسبابه الأيديولوجية ـ التي يمكن اعتبارها غير شاعرية أو العكس، ولكن هذه قضية أخرى ـ ليكتب بهذه الطريقة).

منذ خروجه من تشيلي، سنة ١٩٤٩، حتى عودته الظافرة في آب (أغسطس) ١٩٥٢، يعيش نيرودا محروماً من وطنه، لأكثر من ثلاث سنوات، يسافر خلالها بلا توقف: ففي هذه المرحلة، يكتشف إيطاليا وروعة البحر المتوسط. ويقوم أيضاً برحلات إلى الاتحاد السوفييتي والصين وأوروبا الشرقية. ومن هذا التوسع في رؤيته الأوروبية والآسيوية الذي سيستمر طوال السنتين التاليتين (انظر الاستعراض التاريخي)، يبرز كتابه الأكثر إثارة للنقاش ـ وربما الكتاب الذي يلاقي أقل عدد من المعجبين ـ، ولكنه كان الكتاب الأقرب إلى نفس مؤلفه: «**الأعناب والريح**». وقد تحدث نيرودا عنه، قبل نشره بقليل، في المؤتمر القاري للثقافة الذي عقد في سنتياغو دي تشيلي، عام ١٩٥٣، فقال:

> بعد كتابي «**النشيد الشامل**»، وبعد رحلاتي عبر العالم، كتبتُ ديواناً، لا يزال بلا عنوان، ألتقط فيه أحب الأمور إلى نفسي، في كل من أوروبا القديمة وأوروبا الجديدة. وأنا أطلق تسمية أوروبا الجديدة،

Twitter: @ketab_n

على أوروبا الاشتراكية. وأريد لهذا الكتاب، أن يكون مساهمة مني في السلام. فأنا أبحث فيه عن أفضل منجزات أوروبا الغربية وأوروبا الشرقية، ابحث عن الأبطال والشعوب، عن العصافير والحاصلات، عن الأرض، الجسور، القرى، النبيذ. وأريد لهذا النشيد أن يجمع شمل هذه الوحدة المُهَدَّدة: عالمنا اليوم.

وبعد عدة سنوات، يخرج في مذكراته، ليدافع عن كتابه الذي تعرض للطعن، أكثر من سواه:

الحقيقة هي أن في نفسي، ميلاً إلى ديوان «**الأعناب والريح**». ربما لأنه الكتاب الأصعب على الفهم، أو لأنني شرعت، عبر صفحاته، بالتجول في العالم. ففيه غبار دروب ومياه أنهار. فيه كائنات، وآفاق وما وراء بحار، لأماكن أخرى ما كنت أعرفها، وانكشفت لي لكثرة تجوالي. إنه واحد من أحب كتبي إلى نفسي، أكرر هذا وأعيده.

ودون الوقوع في مبالغات أحد النقاد الإكوادوريين ـ الذي راح يؤكد أن الكتاب كله لا يتضمن أكثر من ست صفحات من الشعر الحقيقي ـ فإننا لا نجاري، كذلك، الشاعر في حماسته لهذا الكتاب. ويبدو لي أنه كتاب انتقالي، في أفضل الأحوال، ونوع من المعارضة الأوروبية للنشيد الشامل، لم يتوصل فيه نيرودا إلى

Twitter: @ketab_n

العثور على الإيقاع الكبير الذي تسمح بساطته التعبيرية الرائعة، بالحديث **عن كل الأمور على الإطلاق**، دون فقدان السيولة الشعرية التي تتحول إلى تنفس حقيقي آخر. إن الكتاب يحتوي، بكل تأكيد، على أكثر من ست قصائد ممتازة، ولكنه يتضمن في الوقت نفسه، العديد من القصائد الدعائية الضيقة، وهذه القصائد، على الأقل، هي أكثر من العدد المطلوب، كيلا يفقد الكتاب توازنه.

الكتاب الثاني، في هذه السنوات، والذي سأقيّمه أيضاً على أنه كتاب انتقالي، هو ديوان «**أغان احتفالية**» (١٩٦١). ولكنني أعتقد أن الحديث عن الانتقالية، في هذه المكانة والمعرفة الشعرية التي بلغها نيرودا، لا يمكن أن يكون تحقيراً، وإنما يجب أن يُفهم، ضمن سياق أعمال نيرودا الكثيرة والمتنوعة. إن «**أغان احتفالية**» ـ لو أخذ معزولاً، وكان من نتاج شاعر آخر، أقل عالمية وشهرة ـ هو كتاب عظيم، مع أنه ليس كذلك بالنسبة لتلك السنوات من حياة نيرودا التي أنتجت أعمالاً أخرى سنراها في ما بعد. وكمثال على ثقة الشاعر وإحكامه لكلماته في ذلك الحين، أظن أنه يكفي إيراد نهاية قصيدة «ابن العم الغربي»، وهي القصيدةالمقدمة في الكتاب.

الرمل الذي فقدنا، الحجر، الوراق،
الشريط البري، وما كناه،
نراه متخلفاً وراءنا ولا من يبكيه:

Twitter: @ketab_n

فالمدينة لم تأكل فقط الصبية
القادمة من «تولتين» بسلتها الفاتحة
المترعة بالبيض والدجاج،
وإنما أكلتك أنت أيضاً أيها الغرب،
أنت أيها الأخ المصلوب،
المعادي، يا وغداً بيد السلطة:
وشيئاً فشيئاً صار للعالم طعم الدود
ولم تعد ثمة أعشاب،
ولم يبق ظلّ على كوكبنا.

في عام ١٩٤٥، يفتتح نيرودا، بنشره ديوان «أغان بدائية»، مرحلة جديدة، خصبة ورائعة من شعره، متوصلاً إلى مأثرة لا سابق لها في الشعر الناطق بالإسبانية؛ فقد شيد بناء شعرياً شامخاً ومشبعاً بذاتيته، وذلك بحشد ونقل المواد الشعرية الدنيا، بل الهشة، مع كل تلك الموضوعات التي اعتبرت، حتى ذلك الحين، غير لائقة في الشعر (إذا ما تم تناولها بصورة منهجية على الأقل). فالأرضي شوكي، وحساء ثعابين الماء، والبصل، والبندورة، والسلك الشائك، والزيت، والجوارب، والكبد، والخوخ، هي الموضوعات التي تسكن هذه الدواوين الصافية والشفافة (صدر ديوان «**أغان بدائية جديدة**» في السنة التالية، ثم ديوان «**كتاب**

Twitter: @ketab_n

الأغاني الثالث» عام ١٩٥٦. ولا بد من إضافة ديواني «**إبحارات وعودات**» (١٩٥٩)، و«**صلاحيات كاملة**» (١٩٦٢) إلى هذه المرحلة؛ فكلاهما كتاب أغنيات بمفهومهما وبلغتهما. وقد وصل عدد تلك الأغنيات إلى ٢٧٩ أغنية). ويقول أ. كوماس، في معجم بومبياني الأدبي: **يبدو كأن الأشياء المقوضة، والمعفرة، وتلك التي تظهر متفسخة، في ديوان** «إقامة في الأرض»، **تحصل فجأة على شخصيتها الكاملة، وترسخ كينونتها، وضرورة وجودها. ويصل نيرودا في الأغنيات، إلى غزو كل ما هو محسوس.** بل إن الناقد المتزمت ألوني ـ بطريرك النقد التشيلي، والعدو السياسي لنيرودا ـ يرضخ أمام لقية الشاعر التي لا شك في عبقريتها. وفي تعليق لا إسراف فيه يقول: **... عارٍ من الحزن، ومن الظلمة والحقد، ودون نواحٍ ولا شعارات، نجد شاعراً ساطعاً في شعر كوني، شاعراً واضحاً، الشاعر الأبسط والأوضح، سعيداً، طيباً (...) ويؤكدون أنّ هذا الوضوح فرضه عليه السوفييت، ليصل إلى الشعب. وإذا كان هذا صحيحاً، فإنه يتوجب علينا أن نسامح السوفييت كثيراً؛ لأنهم أصابوا كثيراً. فنيرودا الواضح والسعيد، أشمخ بكثير، وأكثر حرية ـ وهو أمر ضئيل العلاقة بالماركسية ـ فقد صار كما لو أنهم قد أفلتوا زمامه، ولم يعد يمشي تحت وطأة ذلك الثقل. وبعد تصفية المرارة، وإبعاد التعقيد المظلم، كان الخوف من أن يبحث الشعر عن الإسفاف والتدني إلى المستوى العادي، وأن يهبط ليصبح نثراً. ولكن شعر نيرودا لم يظهر أبداً بمثل هذه المتانة الصحية.**

Twitter: @ketab_n

ويستحضر الشاعر نقطة البداية في مفهوم الأغنيات، فيعطي رشداً لنقاده، ويشير مباشرة إلى نقطة الانطلاق المفترضة في عمله.

... افترضت لنفسي ركيزة أصيلة، مولدة. رغبت في إعادة وصف أشياء كثيرة، غُنّيت وقيلت وأعيدت مراراً وتكراراً. كان لا بد لنقطة انطلاقي المتعمدة، من أن تكون نقطة انطلاق الطفل الذي يبدأ، وهو يمص القلم، بكتابة موضوع إنشاء، مفروض عليه كواجب مدرسي، عن الشمس، أو عن السبورة، أو عن الساعة، أو عن الأسرة الإنسانية. وما كان يمكن لأي موضوع أن يبقى خارج دائرتي، كان عليّ أن ألمس كل شيء، وأنا سائر أو طائر، مخضعاً تعبيري للشفافية القصوى والعذرية الكبرى.

إن الميول الوصفية عند نيرودا، تصل في الأغنيات، إلى حد الإشباع؛ فهو مطلق التسميات الذي يؤسس الواقع بالكلمة. ويلتقي قدره كشاعر ومفهومه للشعر لقاء نهائياً، اعتباراً من هذه المرحلة. ولا بأس علينا أن نورد ـ كنموذج **لفن الشعر**، في هذه المرحلة، والذي ستبقى صلاحيته سائدة بدءاً من هنا حتى النهاية ـ قصيدة «واجبات الغد»، وهي القصيدة الخاتمة التي ينتهي بها ديوان **«إبحارات وعودات»**:

Twitter: @ketab_n

أغنية بلا نهاية، الأمس

والغد (اليوم مبكر)

تولد، ولدت، ستولد،

لتفيد عطش السائر والدرب،

وستهطل كالمطر،

كالخريف ستسقط

لتهدر

صفاء الري.

***

لكل عجلة أقول،

انتظري أيتها العجلة، انتظري:

ها أنذا آت، ها أنذا قادم، شمساً

صغيرة

لنتدحرج معاً.

أجل أيتها العجلة، سنتدحرج معاً.

أجل أيها اللهيب، سنلتهب معاً.

أجل أيها القلب،

أعرفُ،

Twitter: @ketab_n

أعرفُ،

ومعروف أنه:

إلى الحياة، إلى الموت

هذا المصير،

لكننا، مغنّين، سنموت.

ديوان آخر من الدواوين التي سنتناولها في هذا الفصل، هو ديوان «**شاذ**» (١٩٥٨)، وهو بلا ريب كتاب متفرد بين كتب نيرودا، لا سابق له بين أعمال الشاعر، ولن يكون له أي استمرار. فالكتاب بأسره، بدءاً من العنوان الاحتفالي المبكر، هو فرح نقي، وظرافة متأججة.

> ليس ديوان «**شاذ**»، من بين كتبي كلها، هو أكثرها غناء، بل هو أحسنها وثباً. إن أبياته الوثابة، تقفز متجاوزة الوقار والاحترام، والحماية المشتركة، والقواعد السائدة والواجبات، كي ترى الاستهتار المكرم. بسبب وقاحته، هو أكثر كتبي ألفة في نفسي؛ وبسبب مداه، يتوصل إلى إحراز أهمية ومكانة ضمن شعري. وعلى طريقتي في التذوق، أعتبره كتاباً عسيراً، وله طعم الحقيقة المالح.

وهذا الديوان هو دليل آخر، ولن يكون الأخير، على تجديد

Twitter: @ketab_n

نيرودا الذي لا يتوقف، وقلقه الرائع للإحاطة بكل الشعر، وليستخرج جميع تخوم الشعر المختفية في أعماقه. ولا أجد، لمناقشة هذا الكتاب الخالي من أي وقار، ومن أي نوايا مسبقة، أفضل من إيراد أبيات متفرقة، كمختارات خاطفة من القصائد الثماني والسبعين التي تؤلفه. فكل فلسفة الزن (Zen) التي أحاطت بها معارف نيرودا في شبابه، تنعكس فيها:

إذا رغبتم فاذهبوا الآن.
لقد عشت كثيراً، ولا بد أنكم
ستنسونني يوماً
وتمحونني عن السبورة:
لقد كان قلبي بلا نهاية.
ولأني أطلب صمتاً
فلا تظنوا أنني سأموت؛
بل على العكس تماماً:
ما يحدث هو أني سأعيش.

«أطلب صمتاً»

وداعاً يا شارع الزمن القذر،

Twitter: @ketab_n

وداعاً، وداعاً أيها الحب الضائع،
سأرجع إلى صنوبرة بيتي
سأرجع إلى حب محبوبتي،
إلى ما كنت وإلى ما أنا كائن،
ماء وشمس، أرض وتفاح،
شهور بشفاه وأسماء،
سأرجع كيلا أعود،
لن أخطئ أبداً بعد اليوم،
فالمسير إلى الوراء خطر
لأن الماضي يصير، فجأة، سجناً

«عودة إلى المدينة»

إذا أردتم فلا تصدقوا شيئاً مما قلته.
رغبت أن أعلّمكم بعض الأمور فقط.
لأني أستاذ في الحياة،
وتلميذ كسول في الموت
وإن كان ما قلته لا ينفعكم
فأنا لم أقل شيئاً، وإنما كل شيء.

«ليس عالياً جداً»

Twitter: @ketab_n

أخاف من كل ما في العالم،
من الماء البارد والموت.
وأنا مثل جميع الفانين،
لا أتأجل.
ولهذا، لن أهتم بكم
في أيامي القصيرة هذه،
سأفتح نفسي وأغلق نفسي
مع عدوي الغادر الكبير،
بابلو نيرودا.

«الخوف»

لقد رأيت بعض التماثيل
مقامة للجبابرة،
لحمير النشاط.
إنهم أمامكم بلا حراك
حاملين سيوفهم
على صهوات جيادهم الحزينة.
إنني متعب من التماثيل.

Twitter: @ketab_n

لا أستطيع تحمل كل هذه الحجارة.
وإذا ما استمررنا نملأ الدنيا
بهؤلاء الجامدين،
فكيف سيجد الأحياء مكاناً للحياة؟

«بعض المتاعب»

وهكذا، لأخرج من الشكوك
قررت أن أحيا حياة شريفة
حياة أشد الكسل نشاطاً،
طهرتُ نوايايَ،
وخرجت لآكل مع نفسي
فبدأت أصير أخرس.
جذبت نفسي أحياناً لأرقص معي،
لكن بلا حماسة كبيرة،
ونمت وحيداً، بلا شهية،
كيلا أخطئ بالغرفة.

«حول قلة أدبي»

Twitter: @ketab_n

في العام ١٩٦٤، وفي اليوم نفسه الذي أتم فيه الستين من عمره، أهدى نيرودا للنشر، الأجزاء الخمسة من «**ذكريات إيسلا نيغرا**»، وهو الديوان الذي أعتبره أكثر أعماله تمثيلاً لشعره. ولا أقول أجمل أعماله، إنما أكثرها تمثيلاً لشعره؛ فالجوهر الأنطولوجي للشعر النيرودي، حاضر كما لم يحضر في أي عمل آخر من أعمال الشاعر، وكذلك سيرة حياته المعادة من جديد، ومفهومه للتأريخ، كمستقر للشاعرية.

لقد عدت في هذا العمل أيضاً، متعمداً، إلى البدايات الحسية لشعري، إلى «**غسقيات**». وهذا يعني، إلى القصيدة التي تحمل آثار كل يوم. وعلى الرغم من وجود خيط بيوغرافي، فإنني لم أبحث في هذا العمل الطويل، المؤلف من خمسة أجزاء، إلا عن التعبير السعيد أو التعيس الذي يأتي به كل يوم. وصحيح أن هذا الكتاب متسلسل كقصة تتفرق ثم تعود لتتحد، قصة توالي أحداث حياتي بالذات، ووقائع الطبيعة التي تتابع مناداتي بجميع أصواتها التي لا حصر لها.

«حيث يولد المطر»، «القمر في التيه»، «النار القاسية»، «صياد الجذور»، و«سوناتا نقدية» هي، على التوالي، عناوين الأجزاء الخمسة التي تؤلف ديوان «**ذكريات إيسلا نيغرا**».

Twitter: @ketab_n

ويبتدئ الطريق من تيموكو النائية، حيث يكتشف الشاعر العزلة الجنوبية، والمطر، والغابة:

منذ ذلك الحين
صار حبي خشبياً
وكل ما ألمس يصبح غابة.
تختلط علي العيون والأوراق
بعض النساء مع ربيع البندق،
الرجل مع الشجرة،
أحب عالم الريح والأوراق،
ولا أميز بين الشقاء والجذور.

«الرحلة الأولى»

إنه الزمن الذي ما زالت تترأسه، بالحب، «زوجة أبيه»:

التي طبخت، كوت، وغسلت،
التي زرعت، وسكّنت آلام الحمى،
وعندما أنجزتْ كل شيء،
وصرتُ أنا

Twitter: @ketab_n

قادراً على الوقوف بقدمين ثابتتين،
مضت، وقد أدت واجبها، مظلمة،
إلى التابوت الصغير
حيث صارت بطّالة للمرة الأولى
تحت أمطار تيموكو القاسية.

وهو زمن عامل السكة الحديد القاسي ريّس الذي حاول، عبثاً، إبعاد ابنه عن الشعر.

والدي المسكين القاسي
كان هناك، في محور الحياة،
في الصداقة الرجولية، في الكأس المترعة.
حياته كانت نضالاً سريعاً
وما بين استيقاظه المبكر ودروبه
بين وصوله، ليخرج من جديد راكضاً،
صعد سائق القطار خوسيه دل كارمن ريس
في يوم ماطر أكثر من الأيام الأخرى،
إلى قطار الموت، ولم يرجع
حتى اليوم.

Twitter: @ketab_n

إنه زمن المشاعر الغرامية الأولى كذلك، وهو دون السن التي تمكنه من تحقيق تلك الغراميات. ولكن لديه الخيال الكافي لتفتيح «زهرة الرغبة الجائعة والنقية»، زمن زيارة الشعر الأولى («تدحرجتُ مع النجوم،/ وأُفلت قلبي في الريح»). ثم يأتي بعد ذلك النمو، ومعه يأتي القلق، والبحث عن هوية، ربما هي حنين لتلك الهوية الأخرى التي أحرزها دون أن يعي ذلك.

وفجأة ظهر في وجهي
وجه غريب
وكنت أيضاً أنا نفسي:
كنت أنا الذي أكبُر،
كنت أنت الذي تكبر،
كان الجميع،
وتغيرنا
ولم نعرف أبداً من كنا.
أحياناً نتذكر
ذاك الذي عاش فينا
فنطلب منه شيئاً، ربما نطلب أن يتذكرنا،
أو أن يعرف على الأقل أنّنا كنا هو،

Twitter: @ketab_n

وأننا نتكلم بلسانه،
ولكنه ينظر إلينا من خلال الساعات المستنفدة،
ولا يتعرف علينا.

«الطفل الضائع»

وتستمر الذكريات، بلا كلل، عبر رمال الذاكرة: اكتشاف سنتياغو، والمغامرة العاطفية الأليمة في شارع ماروري، والحنين إلى «تيروسا» المهجورة في تيموكو، والميل الشغوف إلى «روساورا» التي يلقاها في العاصمة، والأصدقاء في عربة البوهيمية («بين زجاجات حمراء تفرقع/ وهي تسكب ياقوتها أحياناً،/ لتستل سيوفاً وهمية،/ تدور مناقشات عن الجرأة العقيمة».)؛ والافتتان بالشرق المداري، مع أنه كان يشعر هناك دوماً بالغربة («وصلت غريباً أكثر من أُسود البوما/ ومضيت دون أن أتعرف على أحد/ لأن ضوء الجنة القذالي، ربما،/ قد شوش عظامي».)، ورؤيا باريس الحريفة، في مروره العاجل في أوروبا أول مرة، سنة ١٩٢٧.

كانت لا تزال بقايا تانغو على الأرض،
ومشابك كنيسة كولومبية،
مناظير وأسنان يابانية،

Twitter: @ketab_n

بندورة أروغوائية،
وجثة نحيلة لتشيلي ما،
كله كان سيُكنس،
وسيُغسل في غسالة عظيمة،
كله سينتهي إلى الأبد:
رماداً لذيذاً للغرقى
المتمايلين بطريقة غير مفهومة
في النسيان الطبيعي لنهر السين.

«باريس ١٩٢٧»

وقبل أن يتابع رحلته، يتوقف الشاعر ليجري على نفسه الفحص الأول من فحوص الضمير التي يتضمنها الكتاب، ملتحمة بالسيرة والتأريخ.

يتملكني الخوف أحياناً
من المسير بجانب النهر الهائج،
من النظر إلى البراكين
التي عرفتها دائماً وعرفتني:
ربما في الأعلى، أو في الأسفل،

Twitter: @ketab_n

ربما الماء، أو النار، تتفحصني الآن:
وتفكر في أنني لا أقول الحقيقة،
وأنني أجنبي.

«الرسائل الضائعة»

لكنه يعود ليمسك بخيط «أرياندا» ليروي من جديد، وبصورة نهائية، قصة الحرب الإسبانية، وضياع المدينة التي أحبها («أحببت مدريد لحاراتها، لشوارعها التي تصب في كاستيّا/ مثل أنهار صغيرة من عيون سوداء»)، والعودة إلى تشيلي، وتجربته السياسية كعضو في برلمان بلاده. وفي معترضة جديدة، يتوقف الشاعر عن السرد: يفكر في البحر، في الثلج، في الأرق، في وعيه، في الشتاء («لقد انتظرت هذا الشتاء/ كما لم ينتظر أي شتاء آخر/ رجال، قبلي».)، في الغابة، في الليل، في الجبال. ويدرك أن «الحياة فرض واجب». فيفتتح عندئذ «**السوناتا النقدية**»، المؤلفة من تسع عشرة قصيدة أخيرة، هي تصفية دقيقة لحساباته مع نفسه. في بدايتها تقريباً، يكتب بجدية ونضوج:

ستشرق دون شك،
ودون شك
سيتبدل النهار،

Twitter: @ketab_n

ستدور العجلة،

وستتحول النار.

لم يعد ثمة شيء

مما أشرق،

الأرض احترقت

عنبة بعد عنبة،

والقلب بقي بلا دماء،

والربيع بلا أوراق.

«إنها تشرق»

لا يمكن للشاعر، أن ينسى شيئاً في هذه الرحلة إلى أعماقه؛ فهو يكرس قصيدة طويلة (**«الحدث»**) ليتكلم عن الأزمة التي أثارتها خيبة أمله بستالين، بعدما كشفه المؤتمر العشرون. وبعد تصفية الحسابات حول هذا الموضوع، يستعيد البساطة السعيدة التي أظهرها في كتب **الأغنيات**.

إن بعض الأبيات من قصيدة «ليس ثمة ضوء نقي» ـ وهي قصيدة موجودة في منتصف الذكريات تقريباً ـ ستكون أفضل من أي تعليق حول توازنات ومعارف هذا الكتاب الذي يبدو، كما لو أن نيرودا قد جمع فيه تعددية أصواته، في أنطولوجية شاملة.

Twitter: @ketab_n

الوقت متأخر، متأخر. وأستمر.
أستمر بإيراد مثال بعد آخر،
دون أن أعرف ما هو المغزى،
فلكثرة الحيوات التي عشتها أصبحت ساهياً
وأنا، في الوقت نفسه، ذلك الرجل الذي كنته.
ربما هذه هي النهاية،
هذه هي الحقيقة الغامضة.

Twitter: @ketab_n

حديقة الشتاء

(١٩٦٥ ـ ١٩٧٣)

«ولم أجد الوقت،
ولا الحبر الكافي،
لأكتب كل شيء»

لا تزال أمام نيرودا «دزينة» من الكتب التي سينشرها قبل موته، بالإضافة إلى تأليف وعرض عمله المسرحي الوحيد: «**تألق وموت خواكين موريتا**». وفيه يروي مغامرات ونكبات قاطع طريق تشيلي في كاليفورنيا، خلال حمى الذهب. والمسرحية توسيع درامي لإحدى قصائد ديوان «**أغنية البحارة**».

في سنة ١٩٦٦، يرى النور ديوان «**فن العصافير**»، المؤلف من خمسين قصيدة مكتوبة بأسلوب بارع يتجاوز الإتقان الفني، في بعض الأحيان. وأعتقد أن نيرودا قد استمتع كثيراً بكتابتها. ويمكن إلحاق هذا المرجع في علم الطيور، ليكون الديوان الخامس في مجموعة دواوين **الأغنيات**؛ فبعد المعارف والتقنيات التي توصل

Twitter: @ketab_n

إليها، أصبح بإمكان نيرودا أن يكرس كتاباً كاملاً لأي مظهر من مظاهر الواقع الذي يشغل اهتمامه إلى حد كاف، دون أن يخاطر بالوقوع في التكرار.

«**بيت على الرمال**» هي مجموعة من تسع وثلاثين مقطوعة ـ غالبيتها من النثر ـ مزينة بصور فوتوغرافية للمصور سيرغيو لاراين. نشرته في السنة نفسها، دار النشر البرشلونية «لومين» (كبالون اختبار حول إمكانية إعادة كلمة الشاعر الممنوعة في إسبانيا).

«**أيادي النهار**»، الصادر سنة ١٩٦٨، كتاب آخر حول موضوع واحد، وموضوعه هو الصنعة اليدوية.

بإمكان القصيدة أن تقول الكثير، دفاعاً عن التيار الانتروبولوجي الذي يدعم تحديد **الإنسان العامل**، لتمييز ما هو إنساني، في مواجهة التيار الأكثر بؤساً وتزمتاً الذي يتوج **الإنسان العارف**. فإنساني هو الحيوان القادر على صنع أية أداة. وانطلاقاً من هنا، يبدأ نيرودا في القصيدة الأولى من القصائد الثماني والستين التي تؤلف الكتاب، بندب تقصيره اليدوي.

أقر بأني مذنب، لأني لم أصنع مكنسة،
بهاتين اليدين اللتين مُنحتا لي،
لماذا لم أصنع مكنسة؟
لماذا مُنحتُ يدين؟

Twitter: @ketab_n

وعلى امتداد عدة قصائد، يتابع الشاعر الإشارة إلى يديه العاجزتين اللتين لم تصنعا معدناً، ولم تحرثا أرضاً، ويطري على الأيدي الأخرى؛ الأيدي التي تبني الوقائع الملموسة. إلى أن يكتشف الاستمرار السفلي للإيقاع، الموضوع تحت الأرضي للكتاب الذي، لغرابته، يصعب الإمساك به في القراءة الأولى؛ فالشاعر متعب للمرة الأولى والوحيدة، من عمله. ثمة إجهاد، وخيبة أمل، وشباك عنكبوت تفرض نفسها، بين نشيده ومشيئته.

لن ترجع تلك الأيام الفسيحة
التي دعمت في مرورها، السعادة.
حفيف خمائر
كنبيذ قاتم في الأقبية
كان عمرنا. وداعاً،
وداعاً، تنزلق
وداعات كثيرة كالحمائم
في السماء، نحو الجنوب، نحو الصمت.

إن رتابة الوجود، والغنغرينا التي تتسلق الحياة نحو الموت، تتسلل كلها عبر هذه الصفحات الخريفية. لكن نيرودا يشفى من

Twitter: @ketab_n

الهبوط، فينفض عنه الكآبة، ويرجع إلى طريقه في ديوان «**نهاية العالم**». وهو ارتداد جاء في وقته المناسب، وتباهى فيه أيضاً بمهارته الشعرية، باستخدام المقطعات التساعية الصعبة. ومع ذلك، فإن عنصراً قد اختفى من شعر نيرودا بدءاً من «**أيادي النهار**». وهذا الغياب واضح في «**نهاية العالم**» و«**ما زال**»، وهما الديوانان اللذان صدرا سنة ١٩٦٩. وهذا العنصر الذي اختفى هو: **الانشراح**. إن ذلك الاختفاء، من وجهة نظري، ليس نقيصة، وإنما على العكس تماماً؛ ففي الخامسة والستين من عمره، كان نيرودا قد أصبح عالماً إلى درجة عدم التمسك بالانشراح. فثقته الأيديولوجية التطورية استمرت على رسوخها، ولكنه شخصياً، كان قد أدار ظهره لكل شيء. فهو يعرف أنه لن يحدث له أي جديد، ويتأمل أعماله على أنها مرج فسيح. وهي كذلك فعلاً. وربما من هذا المنطلق، يجب النظر إلى الدورة غير المفهومة، بالنسبة لكثيرين، التي يتنفس منها نيرودا في كتابه التالي: «**السيف المتقد**»، الصادر سنة ١٩٧١.

تروي هذه الأسطورة، قصة ناج من التدمير العظيم الذي أجهز على الإنسانية. وهو مؤسس مملكة قائمة في عزلات خليج ماغيانيس الفسيحة. ويقرر أن يكون القاطن الأخير لهذا العالم، إلى أن تظهر في أراضي مملكته، فتاة هاربة من مدينة القياصرة، أوريّا.

إن القدر الذي اقتادهما إلى الخطيئة، يرفع ضدهما

Twitter: @ketab_n

السيف المتقد القديم لآدم الجديد المتوحش والمتوحد. وعندما يتقد غضب الإله ويموت، في المشهد المضاء بالبركان العظيم، يعي هذان الكائنان الآدميان ألوهيتهما.

ومن خلال تحولات رودو وروزي ـ الرجل والمرأة الآدميين اللذين ابتدعهما ـ يختتم نيرودا، بصورة متماسكة، في أواخر حياته، التعادل الغرامي في أعماله. فالغزل الفاحش في دواوينه الأولى، يتحول في ما بعد، إلى حب كوني متضامن، وتكوين جديد سعيد، اعتباراً من الزواج الأخير للشاعر (**المحب والمحبوب** تماماً). وتصبح مشاعره الآن كونية، وصوفية. (و«موت الإله» لا ينفي ذلك، وإنما يؤكده).

ديوان نيرودا التالي هو («**أحجار السماء**»، ١٩٧١)، يبلغ عنه من عنوانه.

في مرةٍ سنغدو راكضين
عبر نار البركان أو عنب النهر
أو دعوة النداوة المخلصة
أو المسيرة الساكنة في الثلج
أو الغبار المنهار في أقاليم الصحراء،
غبار المعادن،

Twitter: @ketab_n

أو فيما هو أبعد من ذلك، في غبار القطب، موطن الحجر،

الياقوت الأزرق المتجمد،

الجنوبي،

في هذه البقعة أو ذاك المرفأ،

هذه الولادة أو الموت سنغدو

حجراً، ليلاً بلا أعلام،

حباً بلا حراك، النار الدفينة،

الكبرياء المحكومة بطاقتها،

النجم الوحيد الذي نمتلك.

ويلي ذلك، ديوان «**جغرافية باطلة**» (١٩٧٢)، و«**دعوة لإبادة النيكسونية والإشادة بالثورة التشيلية**». وهو آخر كتاب نشره الشاعر، سنة ١٩٧٣، قبل موته بشهور قليلة. وقد صنفه نيرودا نفسه على أنه كتاب **هجائي**. وقال عنه: «إنني ألتجئ إلى استخدام أقدم أسلحة الشعر، إلى النشيد والهجاء اللذين استخدمهما الشعراء الكلاسيكيون والرومانسيون، من أجل القضاء على العدو». ولا نستطيع أن نضيف شيئاً آخر حول هذا الديوان، سوى أن مؤلفه أدرك غرضه بصورة متقنة، بالمقارنة مع هذا الموضوع في الشعر.

Twitter: @ketab_n

فالكتاب يزخر بالقوافي البسيطة والأوزان الشعبية القابلة للحفظ والتكرار كشعارات.

لقد تركت متعمداً، إلى نهاية هذا الفصل، الحديث حول «**أغنية البحارة**». وهو برأيي أهم ديوان للشاعر منذ «**ذكريات إيسلا نيغرا**» حتى موته.

لقد كتبت ديواناً بديعاً، وأسميته «**أغنية البحارة**». إنه أشبه بالترنيمة، وقد التقطته هنا وهناك، من المواد المتوفرة تحت يدي، وهذه المواد كانت في بعض الأحيان، مياهاً أو قمحاً، ورمالاً بسيطة في أحيان أخرى.. محاجر أو جروفاً صخرية قاسية ودقيقة، والبحر دائماً بصمته وهياجه. أوابد امتلكها هنا، قريباً من نافذتي، وفي ما حول ورقتي. وفي هذا الكتاب، ثمة قصائد لا تغني وحسب، وإنما تروي أيضاً، لأن الزمان الغابر كان هكذا، فالشعر كان يغني ويروي، وأنا كذلك، غابر، وليس لي ثمة وسيلة..».

إن نيرودا لم «يغنِّ ويروِ» قط بكل هذا التناسق الموسيقي، مثلما فعل في هذا الديوان البارع في سنوات نضوجه. فهو يستخدم أصعب الأوزان الشعرية وأفخمها، متنقلاً من وزن إلى آخر، ليغطي مختلف الإيقاعات الصوتية، مما يسمح له بمصارعة حقيقية وفاخرة مع الثور الشعري.

Twitter: @ketab_n

وتجتمع في «**أغنية البحارة**» أيضاً، وبشكل موضوعي، بعض الأمور التي توصل إليها نيرودا في عدة جبهات: الاعتراف بنسبه الشعري (في قصيدة التكريم البديعة لروبين داريو، حيث يُطلق عليه ببساطة، اسم «ر. د».)، وميوله الغنائية (لا سيما في المقاطع الحوارية بين موريتا وحبيبته)، وجانب الشاهد فيه (في الوصف الجميل جداً للوطن)، وتفسيره للتاريخ (في تكريمه للورد كوتشران وأرتيغاس). ونجد في «**أغنية البحارة**» أيضاً ـ وهذا المظهر يشمل الكتاب كله، ويشكل قوامه ـ اللقاء بالحب كاملاً؛ الشعور العميق بأنه قد وصل إلى المرفأ.

حبيبتي،
أحبكِ وتحبينني وأحبك
الأيام قصيرة، والشهور، والمطر والقطارات،
البيوت عالية، والأشجار، ونحن أكثر علواً:
يقترب الزبد فوق الرمال ليقبلك،
تهاجر الطيور من الأرخبيلات
وتنمو في قلبي جذورك القمحية.

لا شك يا حبيبتي أن عاصفة أيلول

Twitter: @ketab_n

أهوت بحديدها الصدئ على رأسك
وعندما رأيتك وسط الريح الشوكية
سائرة بلا دفاع،
أمسكتُ بقيثارتك التي من العنبر، وجلستُ إلى جانبك،
شاعراً بأنني عاجز عن الغناء دون ثغرك،
وأنني سأموت ما لم تنظري إليّ باكية تحت المطر.

ويمكننا مضاعفة الأمثلة والشواهد إلى حد استنساخ الكتاب بأسره. ولكنني أريد أن أنتهي بإيراد مقطع هو، في نظري، أجمل مثال بين الأمثلة الكثيرة، حول «تصفية الحسابات» في كتب نيرودا الأخيرة. وهذا المقطع هو نهاية قصيدة بعنوان «إنني بعيد» في ديوان «**أغنية البحارة**».

لقد استبدلت الشمس والفن الشعري مرات عديدة
حتى إنني كنت، ما أزال، أنفع مثالاً للكآبة
عندما صنفوني في الفهارس الجديدة متفائلاً،
وما كادوا يعلنون أنني غامض كفم الذئب أو الكلب
حتى شكوا إلى الشرطة بساطة غنائي،

Twitter: @ketab_n

وأكثر من واحد عثر على مهنة، وخرج ليقاتل قدري

بالتشيلية، بالفرنسية، بالإنكليزية، بالسم، بالنباح، بالوشوشة.

ها هنا أحمل الضوء وأقدمه إلى الرفيق الخبيث.

ضوء الشمس المفاجئ في الماء، مولداً حمائم، وأغني.

سيكون الوقت متأخراً، فالسفينة ستدخل في الغياهب، وأغني.

وسيفتح الليل مخازنه، فأنام متدثراً بالنجوم. وأغني.

وسيأتي الغد بوردة مستديرة في فمه. وأنا أغني.

وأنا أغني. أنا أغني. أغني. أغني.

Twitter: @ketab_n

كتاب التساؤلات

(١٩٧٤ ـ ١٩٧٨)

«ما دمت لم أترك أحداً بسلام،

فلن يدعوني بسلام،

ليس مهماً، وسترى:

سيطبعون حتى جواربي».

توفي بابلو نيرودا ليلة الثالث والعشرين من أيلول (سبتمبر) عام ١٩٧٣. وفي شهر شباط (فبراير) من تلك السنة نفسها، تزوره كاتبة سيرته مارغريتا أغييري للمرة قبل الأخيرة، وتكتب: **في دفاتر ذات أغلفة خضراء، ومخطوطة بحبر أخضر كذلك، كان يكتب القصائد التي ستؤلف عدة كتب مختلفة. ومع أن بابلو كان يستاء من العبث بأصول كتبه، وتقليبها أو تصفحها، إلا أنني لم استطع مقاومة الإغراء. وقد سجلت عناوين الكتب التي لا تزال مشاريع حتى الآن، وهي: «عيوب مختارة وقصائد أخرى»، «كتاب التساؤلات»، «القلب الأصفر»، «كتاب الغوثمانين»، و«البحر والنواقيس».**

Twitter: @ketab_n

وفي شهر حزيران (يونيو) من السنة نفسها ـ قبل موت الشاعر بثلاثة شهور ـ تعود مارغريتا أغييري إلى إيسلا نيغرا، حيث تلتقي نيرودا لآخر مرة. وتؤكد: **بالإضافة إلى مجموعة الكتب التي أشرت إليها، كتب بابلو في باريس كتاب مذكرات نثرياً، وقد أخبرني بأن هذه الكتاب هو توسيع للمذكرات التي نشرها خلال سنة ١٩٦٢ في مجلة «أوكروتيرو». ولم يسمح نيرودا بنشر تلك المذكرات في أعماله الكاملة، لأنه كان يفكر دائماً في توسيعها. وكتاب المذكرات لم ينته بعد. ويقوم سكرتيره هوميرو حالياً بتبييض الصفحات الثلاثمائة المخطوطة، بانتظار أن يعود الشاعر إلى متابعة العمل فيه.**

ولا بد أن نضيف أن نيرودا قد أنجز كتابه «**دعوة لإبادة النيكسونية**» ـ الذي نُشر في شباط (فبراير) من ذلك العام ـ، وأنه كان مريضاً ـ فقد وجدته أغييري يشكو من آلام الروماتيزم ـ، وأن همومه السياسية كانت تتعاظم، بسبب المأساة التشيلية الوشيكة ـ وقد حدس وقوع المأساة بكل وضوح، في البيان الذي أصدره في أواسط سنة ١٩٧٣ ـ. وأغلب الظن أنه لم يُملِ على هوميرو ارثي أية صفحة جديدة من مذكراته، وأنه لم يضف شيئاً، أو الشيء القليل فقط، إلى مسودات كتبه التي لم تكن مكتملة.

وعلى الرغم من الأمور المشار إليها، فقد تحول عام ١٩٧٤ إلى عام احتفال لا نظير له بنيرودا. فقد ظهرت أربعة من الكتب الخمسة التي «تجسست عليها» مارغريتا أغييري ـ «كتاب

Twitter: @ketab_n

الغوثمانيين» اختفى في تلك الضجة ـ، كما ظهرت ثلاثة كتب أخرى لم يُذكر أي منها في مناسبة سابقة: «**الوردة المفصولة**»، و«**٢٠٠٠**»، و«**مرثية**». أما المذكرات، فإن الصفحات الثلاثمئة التي نقلها هوميرو ارثي على الآلة الكاتبة، تحولت إلى أكثر من خمسمئة صفحة في الكتاب الذي أصدرته دار النشر «سيكس بارّال» تحت عنوان «**أعترف بأني قد عشت**». وفي سنة ١٩٧٨، تنشر دار النشر نفسها أخيراً (أخيراً؟) كتاب «**للولادة وُلدت**»، وهو مؤلف من خمسمئة صفحة أخرى من النثر المتنوع، مستخرجة من عدة أماكن، ومصنفة في ثمانية دفاتر، لإضفاء بعض الترتيب عليها.

ليس لدي أي موقف ضد تنفيذ الوصايا الأدبية، حتى عندما يتعارض تنفيذ الوصية مع رغبات الميت (وقضية ماكس برود المتعلقة بوصية فرانز كافكا، هي أشهر مثال لما أعنيه)؛ فأعمال أي مبدع تصبح ملكاً للعالم بأسره، أكثر مما هي ملكية خاصة به. ويصبح المبرر أكبر، عندما ينهي هو دوره الأرضي.

وما أقصده في حالة نيرودا، هو الطريقة التي نُشرت بها أعماله. فبين يدي الآن، ثلاثة من الكتب التي نُشرت بعد موته، لا يتعدى أي منها كونه مسودة. والأمر متعلق طبعاً بمسودات لنيرودا. ولا بد أن نشرها مهم جداً، فضلاً عن كونه وفاء لأعمال الشاعر. ولكن حداً أدنى من الجدية، كان يقضي بجمعها كلها في مجلد واحد، وإرفاقها بدراسة تمهيدية تساعد على وضعها في موقعها الصحيح،

Twitter: @ketab_n

بين أعمال الشاعر، وتقديم يميزها عن مؤلفات الشاعر المنجزة في حياته. فعملية التدخل التي مورست لترتيب الكتاب بالتسلسل الذي لم يكن عليه قطعاً، لا يُلحق الضرر بنيرودا كراوٍ وحسب، وإنما يكشف أيضاً عن سوء المصداقية الثقافية. إن عدم وجود مقدمة، أو تفسير ممهور بتوقيع، يوضح الأسلوب المستخدم في تنسيق الكتاب، هو قضية أشد خطورة من مسألة دواوين الشعر. (وما ذكره منسقو الكتاب في بضعة سطور، على الغلاف الأخير للمذكرات، يشكل إشارة للمتخصصين، ولكنه ليس بذي فائدة للجمهور، بشكل عام).

أقول هذا، وأنا أتمنى لو أن ما نُشر بعد موت نيرودا، قد ضُمِّن كله في السفر الذي ظهر مؤخراً بعنوان «للولادة ولدت»، أو أن يجري نشره في المستقبل بتدقيق أشد. وأخيراً، فإن هذه المؤلفات لا تضيف جديداً إلى أعمال الشاعر. وإذا كان بالإمكان، تبرير نشرها على أنها مساعدة للباحثين والدارسين في مهمتهم، فإن ما يبدو منطقياً، هو المطالبة بتأمين تغطية لهذه الأعمال، من مؤسسة علمية مطلعة.

Twitter: @ketab_n

خاتمة

«ولست أدري إذا ما كان تفاخراً القول،
وأنا في هذه السن، بأنني لا أنفي استمراري
بكنز جميع الأشياء التي رأيت أو أحببت،
كل ما شعرت به، وعشته، وناضلتُ من أجله،
لأتابع كتابة القصيدة الطويلة التي لم
أنهها، لأن الكلمة الأخيرة، في اللحظة
الأخيرة من حياتي، هي التي ستنهيها».

شاعر التنوع في السياق الواحد؛ والوفاء لمفهوم شعري تطوري، ومستبدل الاستراتيجية، مرة بعد مرة. هذا هو بابلو نيرودا الذي لم يعرف عصرنا مثيلاً له. لقد احتاجت ميوله التأريخية لقدراته الشعرية الهائلة كيلا تُسحق تحت ثقل خمسين سنة من العمل الشعري المتواصل، وأكثر من خمسين كتاباً. إن من ينتقدون هذا الإكثار، لا يدركون أنه ليس حجر الأساس في أعماله وحسب، وإنما هو المبرر الضروري والكافي لظاهرته. فمثل

Twitter: @ketab_n

هوميروس، ومثل وايتمان، ومثل داريو، لم يكن بمقدور بابلو نيرودا، أن يغني بصوت خافت، ولا أن يتوقف ليلتقط أنفاسه. فعندما يجتمع لشاعرية ـ كما هي حاله ـ الاهتمام المتيقظ للمؤرخ، والعزيمة التأسيسية للكلمة، فإن صاحبها محكوم، لا محالة، بتجاوز حدود المعقول، ليصبح متعصباً، وعاملاً لا يعرف الكلل، تحت طائلة المغالاة والتكرار. إن أي تردد سيقتله، وأي نسيان يكون كافياً لإلغاء مشروع عمله المتجاوز للحدود. وهو لا يسعى إلا إلى أمر واحد: إعادة رسم الكون.

من السهل، العثور على أسماك ميتة في هذا الأُقيانوس الفسيح. ولكن الصعب هو العثور على موازٍ لحجم إصاباته، وعلى التماسك والنقاء اللذين جعل بهما نيرودا من هدفه الشاق، أمراً جديراً بالاحترام.

إذا كان الشعر، من حيث المبدأ، هو رهان خاسر مسبقاً؛ وإذا كان كل شاعر عظيم يعرف ـ أو يحدس ـ أن الواقع ليس شاعرياً، وإن كلمته تخدش السر دائماً، دون التوصل إلى إلغائه، فإن شكلاً من اشكال الثقة اليائسة، لا بد أن يحرك هذا الإنسان، ليجعله يستهلك حياته في هذا الحصار. وأظن أن هذه الثقة، في حالة نيرودا، هي حبه الإنساني، واستبعاده لكل ما هو ألوهي، وتحديده الصائب لمستقبل الإنسان المشرق، وصعوده المستمر دون توقف عبر التاريخ، بدءاً من القرد المتمايل ترنحاً، حتى الملاك الأحمر الذي كان ينتظره، كنهاية لمصيره.

Twitter: @ketab_n

وهذه، دون شك، هي نقطة الضعف الكبرى في عمله ـ من المعروف أن الأناجيل تتعارض وتختصم مع الذكاء ـ، وهو سبب سقوطها في السذاجة، والتبسيط، والدوغمائية. ولكن لا بد من البحث هنا كذلك، عن قوام عظمتها؛ إذ لا يمكن بناء كاتدرائية انطلاقاً من الارتياب. والنبوة غير ممكنة دون إيمان، كما لم يكن ممكناً فتح أميركا دون التعصب.

ثمة يقين مطلق تلوح لي رؤيته منتصباً في آلاف الصفحات التي خطها نيرودا: لقد كان قادراً على تقصد أعماله، وتحقيقها بهذا التماسك الكبير، لأنه آمن بالبشر، وأجبر نفسه على العمل ليترك لهم إنجيلاً يتضمن هذه الثقة. وبالإمكان، مشاركته أو عدم مشاركته في رؤيته للواقع والشعر. ولكن نيرودا حقق المهمة العملاقة بمنهجة كلا الأمرين، لصالح الإنسان.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

نشرت مجلة «ترينفو» الإسبانية، في عددها الصادر بتاريخ ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٣، رواية شاهد عيان، هو الكاتب الكولومبي المعروف «بلينيو أبوليو ميندوثا» لتفاصيل الساعات والدقائق والثواني التي أعقبت موت الشاعر بابلو نيرودا. ونورد في ما يلي ترجمة لها، لتكون بمثابة خاتمة لهذا الكتاب.

المترجم

في ذلك اليوم، عندما كنا نستعد لزيارته في المستشفى، تلقينا الخبر: لقد مات نيرودا!

كان الجو بارداً، وفي الهواء، ما زال يطفو ضباب صباحي، عندما وصلنا إلى بيته في سنتياغو، في شارع ماركيز دي لابلاتا. شارع صغير، منسي. إنه الملجأ المناسب لشاعر، تملؤه أشجار داكنة اللون، تعطي انطباعاً خريفياً في الربيع الجنوبي. وينتهي شارع ماركيز دي لابلاتا بجدار رُسمت عليه لوحة دعائية بألوان

Twitter: @ketab_n

زاهية، رسمها أناس من الوحدة الشعبية. إنها اللوحة الدعائية الوحيدة لليسار التي لم تُمح في سنتياغو.

وهناك، قبالة بيت الشاعر، ثمة لافتة تقول: «الشبيبة تحييك يا نيرودا».

ـ دون بابلو موجود؟

كان السؤال سخيفاً. ولكن المرأة التي فتحت الباب، تلقته بصورة طبيعية، وقالت:

ـ إنه فوق.

بهو الدخول مغمور بالماء، وكذلك الطابق الأول. ماء عكر يتدفق من مكان ما.

في الجانب الآخر من البهو، وفي مستوى أكثر ارتفاعاً، توجد حديقة رطبة تملؤها النفايات: أوراق، كتب محروقة، زجاج. كثير من الزجاج يصر تحت الأحذية. امرأتان تقلبان النفايات بحذر. التفتت إحداهن إلينا، وقالت ببساطة:

لقد حطموها.

انحنينا لنلتقط صورة ملوثة بالطين، إنها قديمة جداً. ثلاثة رجال وامرأة يلبسون زي الثلاثينيات، ويجلسون وسط الثلوج. يبدون سعداء أمام المصور.

قالت المرأة:

Twitter: @ketab_n

ـ هذا الرماد هو صور ورسائل دون بابلو.

قصاصات ورق مكتوبة بخط صغير منمق، متآكلة الحواف بفعل النار، تبدو منثورة هنا وهناك.

قالت المرأة:

ـ لم ينتظروا حتى يموت. لقد حضروا منذ يومين.

ـ أين تضعونه؟

ـ هناك.

وأشارت إلى غرفة صغيرة كأنها بيت حمائم، ترتفع في أعلى الحديقة، ويُصعد إليها بسلّم مائل.

عندما فتحنا الباب، وجدنا أنفسنا أمام نعش في غرفة مثلجة، بلا أضواء، حيث كان ستة أشخاص فقط.

وكان ذلك النعش الرمادي مركوناً فوق قطعة موبيليا، دون أبهة، دون أكاليل، دون شموع، ومزيناً بزهرتين بيضاوين فقط، يبدو أنهما قطفتا على عجل، مما يفاقم الشعور بالوحدة.

تحت لوح من الزجاج، كان وجه نيرودا المسجى فوق قطعة من قماش الساتان. إنه يبدو ناقصاً، غير واقعي. لم يكن فيه بريق الحياة. ولكن قميصه الذي يلبسه، كان مفتوحاً عند عنقه، مما يوحي بالتفكير في أيام الآحاد الهادئة، في إيسلا نيغرا، أو في صبيحات ربيعية في باريس، المدينة التي أحبها نيرودا، وفارقها إلى الأبد، منذ عام.

Twitter: @ketab_n

كانت زوجة نيرودا تجلس إلى جانب النعش وحيدة. «ماتيلدي أوروتيا» التي عرفناها قبل سنتين، في بيت غارسيا ماركيز في برشلونة، في ذلك الصيف، عندما لم يكن هناك ما يدعو إلى القلق على حياة الشاعر أو على تشيلي. المرأة الشقراء التي كانت تتكلم بحماسة، بينما كانت زجاجات النبيذ الأبيض في الثلاجة، تنتظر وصول نيرودا، تجلس الآن ساكنة، ودون أن تبكي، عند قدمي التابوت، في غرفة مزروعة بالنفايات. البيت كله كان قد تعرض للتفتيش والسلب.

عندما تمكنوا من قطع الماء المتدفق، كان الطابق السفلي قد فاض. ليس ثمة نور كهربائي، والنوافذ مهشمة، ومصابيح الكهرباء والتحف محطمة أيضاً، إلى نتف صغيرة، والكتب محروقة، واللوحات مختفية، لوحات بدائية كان نيرودا قد جمعها، طوال حياته.

في تلك الليلة، وفي بيت غارق في الظلام، في صمت المدينة الواجمة، بسبب منع التجول، ومع لفحات البرد الجبلية التي تتسلل من النوافذ المهشمة، كان على الأرملة، أن تسهر إلى جوار جثمان الشاعر.

الآن، في وضح النهار، لا تزال المدينة تعيش هدوءاً متوتراً. سيارات مصفحة تغص بالجنود، تنتقل ببطء في الشوارع. وبسبب هذا الوضع، تجرأ على الحضور، عدد قليل فقط من أصدقاء نيرودا، ومعظمهم من مناضلي الوحدة الشعبية.

Twitter: @ketab_n

كانت هناك لاورا، شقيقته، وبعض الأقارب، وكانوا يتكلمون بصوت خافت، في أحد الأركان.

كان نور الصباح قد ملأ الكون، عندما بدأ الصحفيون يتوافدون، مجهزين بآلات تصوير سينمائية. كما حضرت بعض الشخصيات الأخرى: رادوميرو توميك، الزعيم الديمقراطي المسيحي، وسفير السويد. سفارة فرنسا بعثت بإكليل عليه بطاقة تعزية تقول: «تؤلمنا تشيلي».

ظهر أحدهم، وهو يحمل علماً تشيلياً وضعه فوق النعش.

في تلك اللحظة، نهضت أرملة نيرودا عن الكرسي، حيث كانت تجلس طوال الصباح، وخرجت إلى الحديقة. بحثت عن ركن منعزل، ثم أسندت رأسها على جذع صفصافة، وبكت بصمت، بعيداً عن آلات التصوير.

التقينا في الحديقة بكاتب صديق، طويل القامة، ذي طبع مرح، على الرغم من شعره الأبيض. وكلمته ماتيلدي أوروتيا، طالبة منه أن ينهي إجراءات الدفن. كان يبحث عن سيارة، فعرضنا عليه أن ننقله بسيارتنا الصغيرة التي تركناها أمام الباب.

بينما كنا نتقدم نحو وسط المدينة، في شوارع رمادية يلفها البرد، كان يقص علينا كيف فند فكرة نقل جثة نيرودا إلى المكسيك (الفكرة انطلقت من بعض الأصدقاء، هذا الصباح، وحسب رأيهم، فهذه طريقة للتعبير عن معارضته، ورفضه للوضع

Twitter: @ketab_n

الحالي. ولكن ماتيلدي لم توافق. فمن الممكن، أن يسيء الشعب التشيلي فهم هذا التصرف).

فتح يده وأرانا مفتاحاً صغيراً.

إن هذا من أجل ضريح نيرودا.

الضريح الذي سيُدفن فيه جثمان الشاعر، ملك لأقرباء أحد المشرفين على كرة القدم في تشيلي: كارلوس ديتبوران.. مدفن مؤقت. وفي ما بعد، سينقل رفاته إلى إيسلا نيغرا، احتراماً لمشيئة نيرودا.

قبالة مؤسسة الدفن، هناك امرأة تمحو بالماء والصابون، جدارية من رسوم الوحدة الشعبية. إنها تعمل بنشاط، وتدلك الجدار مرة بعد أخرى. ولكن اللوحة الجدارية المتمردة، ترفض أن تختفي.

ملأ الموظف الذي جاء لتسجيل الوفاة، الاستمارات، بتدقيق بيروقراطي:

ـ اسم الميت؟

ـ بابلو نيرودا.

ـ اسم الوالدين؟

ـ خوسيه دل كارمن ريس، وروسا باسو التو.

.... الخ.

Twitter: @ketab_n

بعد فحص دقيق، لم يكن كل شيء نظامياً. ينقص تقرير يُبيّن سبب وفاة الشاعر، ووثيقة الوفاة. (سنحصل عليها في ما بعد: توفي نيرودا بسبب سرطان البروستات، وليس بسكتة قلبية كما قيل).

وأخيراً، السؤال النهائي:

ـ كم عربة تريدون؟

صديقنا لم يكن يعرف. ولكن الموظف قال:

ـ من أجل دون بابلو، يجب أن تكون عربتان اثنتان. أعتقد أنه ستكون هناك أكاليل كثيرة.

فقال صديق نيرودا:

ـ في الظروف الطبيعية، يجب أن تكون أكثر: سبع، أو عشر عربات. لست أدري. ولكنني أعتقد أن عربة واحدة تكفي في الظروف الراهنة.

رنة صوته كانت تحمل مرارة واهنة. فصديق نيرودا هذا، لم يكن يعرف إذا ما كان عليه أن يختفي في تلك اللحظة أم لا، وإذا كان سيُعتقل أم لا. لقد تلقى في تلك الليلة، بالهاتف، نبأ وفاة الشاعر، عندما كان يقوم في شقته، بعمل رهيب. فقد كان يحرق مكتبته التي تغص بالكتب الماركسية، خوفاً من العواقب. وعندما بزغ الفجر، كانت الكتب قد احترقت.

ـ هل سيخرج أحد في الجنازة غداً؟

Twitter: @ketab_n

ـ من الصعب معرفة ذلك، في وضع كهذا.

كان هناك حشد أكثر من المتوقع. حوالي ثلاثمئة شخص بمن فيهم الصحفيون والمصورون الأوروبيون.

عندما نُقل النعش، مع العلم التشيلي، عبر الحديقة الغارقة بالماء، إلى عربة الدفن القابعة أمام الباب، كانت الشمس تبعث الدفء بصعوبة؛ فما زال في الجو، شيء ينفث رائحة ولون الشتاء الجنوبي. ولما أراد الموكب بدء مسيرته، في جو تلك الأيام المشحونة بالرهبة والخوف، دوّت في الشارع، صرخة مجهولة:

ـ أيها الرفيق بابلو نيرودا.

وردت بعض الأصوات:

ـ حاضر.

تكررت الصرخة بالهتاف نفسه، مرتين. بعد ذلك قاطع الصوت المجهول الأصوات الأخرى التي ترد عليه، بكلمة «حاضر»، ليقول صارخاً:

ـ الآن وإلى الأبد.

بدأ الموكب سيره من جديد، بصمت وبطء شديدين.

المسافة بين بيت نيرودا والمقبرة العامة، لم تكن بعيدة: كيلومترين بمجموعها. ولكن الجو الذي تعيشه المدينة، حيث دوريات مكثفة من الجيش، تجوب الشوارع، جعل المسيرة بطيئة مشحونة بالتوتر.

Twitter: @ketab_n

بعض الناس وقفوا أمام الأبواب، وعند النوافذ، ينظرون إلى النعش وهو يمر، دون أن يقولوا كلمة.

أمام باب المقبرة المرتفع ذي القنطرة، رُفع النعش عن العربة، ووضع فوق منصة متحركة على عجلات. وغدت المجموعة البشرية أكثر تراصاً، وهي تتقدم في ممر المقبرة الضيق. وانطلقت فجأة، حول التابوت، دندنات خافتة لأغنية، بدت كأنها طنين نحل. وفي مسمع الممر، صار للأصوات رنه أكثر تصميماً، أكثر ثباتاً.. إنهم ينشدون النشيد الأممي.

تُسمع في الخلف، في الساحة الصغيرة التي تفضي إلى المقبرة، صفارات السيارات العسكرية، ويظهر جنود يقفزون من الشاحنات، وهم يجملون بنادقهم الرشاشة. ولكن الحشد استمر بالغناء.

أحسسنا بصفير هواء جليدي، بين أشجار السرو المغطاة بالغبار، بينما كان الموكب يتقدم.

وأمام ضريح عائلة ديتبوران، ران صمت، بدّده بعض الشيء، أزيز آلات التصوير السينمائية. وبقي الصمت نفسه سائداً، عندما ألقى ثلاثة كتّاب وامرأة خطبهم بلا مكبر للصوت.

ووقف طالب شاحب، يحمل ورقة منتزعة من دفتر مدرسي، ترتعش بين يديه، وقرأ قصيدة الوداع لنيرودا. لقد كتب القصيدة في ذلك الصباح، وكانت قصيدة رائعة.

Twitter: @ketab_n

عند إدخال التابوت في الكوة المخصصة له، وسط وابل من الأزهار، انفجرت صرخة الهتاف لنيرودا من جديد.

وفجأة، صاح آخر بصورة غير متوقعة:

ـ أيها الرفيق سلفادور أللليندي.

كانت تلك هي المرة الأولى التي يُصرخ بها باسم الرئيس أللليندي، في سنتياغو، بعد موته.

وأجابت جوقة واسعة:

ـ حاضر.

بعد ذلك، كانت التحية لفيكتور خارا، مغني تشيلي الذي أُعدم رمياً بالرصاص، قبل أسبوع، في الستاد الوطني. أجهشت بالبكاء زوجته الإنكليزية، الطويلة الشقراء التي كانت تقف قرب نعش نيرودا. فقبل أربعة ايام، وهي برفقة السفير البريطاني، تعرفت على جثة زوجها، وسط مئتين من القتلى.

وفجأة، تحولت جنازة نيرودا إلى تظاهرة سياسية «عمل المعارضة الشعبي الأول»، هكذا كان عنوان الصحيفة اليومية الفرنسية «ليموند». المشهد على كل حال، كان قصيراً جداً. لم تكد تغلق الكوة التي تحفظ رفات نيرودا، حتى أطبق من جديد، صمت من التوتر والارتباك. يتواصل سماع صفير السيارات العسكرية في الخارج. بدأ الحشد بالتفرق، بسرعة، في كل الأنحاء.

عندما خرجنا، وعلى بعد أمتار قليلة من المدخل، رأينا جماعة

Twitter: @ketab_n

من النساء يلبسن السواد، ويبكين. لا يبكين نيرودا. إنهن زوجات قادة نقابيين قُتلوا رمياً بالرصاص، وقد انتهين من التعرف على جثث أزواجهن. يحملن في أيديهن وثائق دفن معطاة من السلطات العسكرية. ويبكين على بعد أمتار قليلة من شاحنات الجيش.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفهرس

مدخل ٥

عرض تاريخي ٩

كأس الدم (١٩٠٤ ـ ١٩٢٠) ٣١

رامي المقلاع المتحمس (١٩٢١ ـ ١٩٢٦) ٣٩

إقامة في الأرض (١٩٢٥ ـ ١٩٣٥) ٥٥

إسبانيا في القلب (١٩٣٤ ـ ١٩٣٩) ٧٣

النشيد الشامل (١٩٣٨ ـ ١٩٥٠) ٨٧

I. المصباح في الأرض ٩٠

II. مرتفعات ماتشو بيتشو ٩١

III. الغزاة ٩٩

IV. المُحَرِّرون ١٠٠

V. الرمل المغدور ١٠١

Twitter: @ketab_n

VI. أميركا، لا أدعو باسمك باطلاً ١٠٣
VII. النشيد الشامل لتشيلي ١٠٣
VIII. الأرض تسمى «خوان» ١٠٤
IX. فليستيقظ الحطاب ١٠٦
X. الطريد ١٠٧
XI. أزهار بونيتاكي ١٠٨
XII. أنهار الغناء ١٠٩
XIII. كورال سنة جديدة للوطن الذي في الدياجير ١١٠
XIV. المحيط العظيم ١١١
XV. هذا أنا ١١٢
إبحارات وعودات (١٩٤٩ ـ ١٩٦٤) ١١٩
حديقة الشتاء (١٩٦٥ ـ ١٩٧٣) ١٤٣
كتاب التساؤلات (١٩٧٤ ـ ١٩٧٨) ١٥٣
خاتمة ١٥٧

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

البيرتو كونتي

بابلو نيرودا

ترجمة
صالح علماني

ملأ الموظف الذي جاء لتسجيل الوفاة، الاستمارات، بتدقيق بيروقراطي:

- اسم الميت؟
- بابلو نيرودا.
- اسم الوالدين؟
- خوسيه دل كارمن ربيس، وروسا باسو التو.

Powerd by AZIZ HUMAID STUDIO